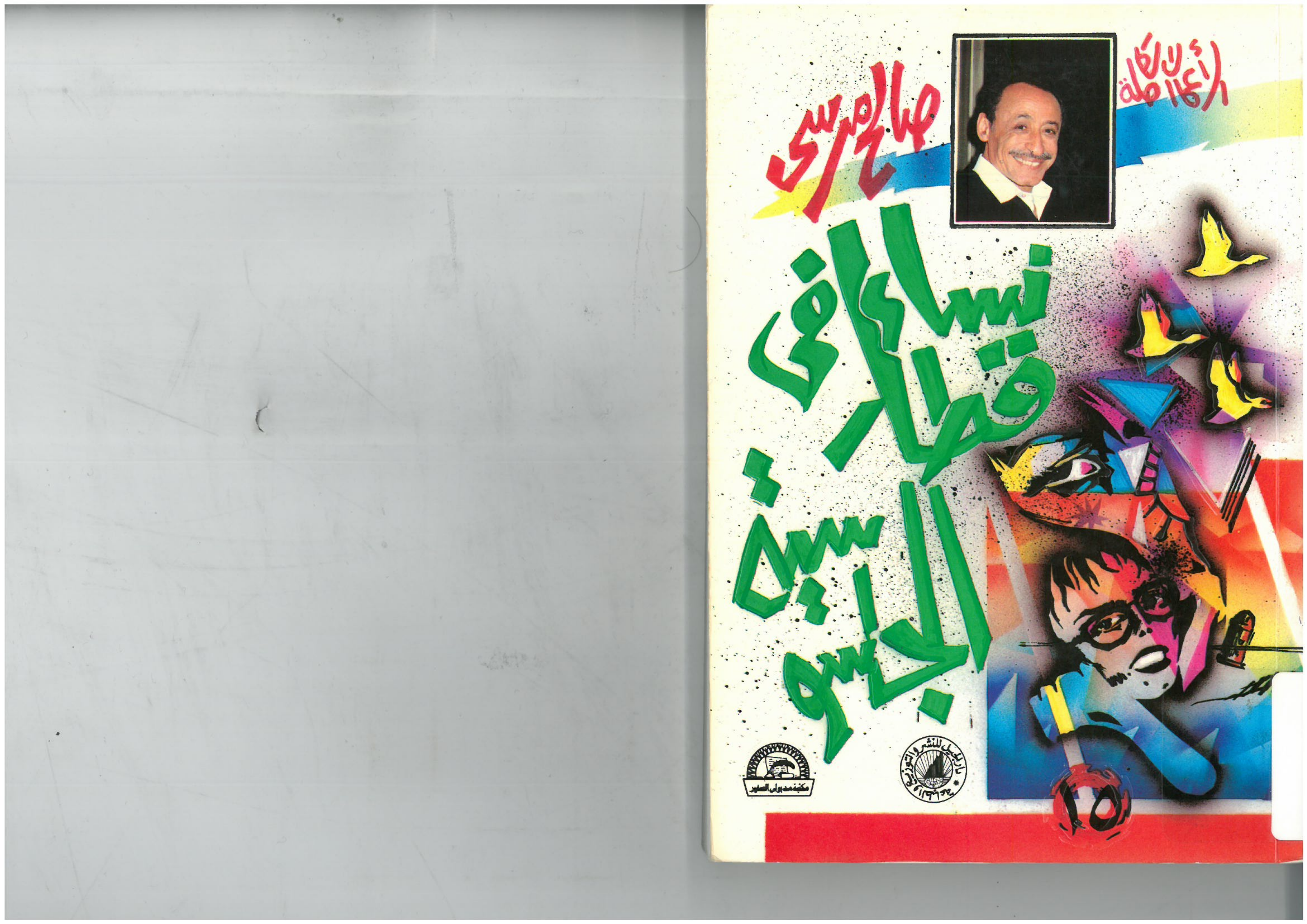


الأعمال الكاملة
صالح مرسي
نساء في قطار الجاسوسية
دار الجيل للنشر والتوزيع
مكتبة مدبولي الصغير
١٥

الأعمال الكاملة (١)

صالح مرسى

نساء فى قطار الجاسوسية

الجزء الأول



بيروت

مكتبة مدبولى الصغير
القاهرة

الطبعة الرابعة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

المقدمة

لماذا يرتبط وجود المرأة فى مجال الجاسوسية بالجنس ؟!

كان هذا السؤال الذى طرحه علىّ أحد الزملاء ذات يوم أثناء مناقشة حول دور المرأة فى هذا الحقل الغريب والخطير ؟! ... وليس هناك مجال لإنكار هذه الحقيقة وإن كانت ، فى واقع الأمر ، ليست مطلقة ، فليس شرطاً أن يقترن وجود المرأة فى أية عملية من عمليات الجاسوسية بالجنس كعملية فسيولوجية ... وربما كان السبب فى شيوع هذه المقولة أو هذا التصور ، سواء فى عالمنا العربى أم فى العالم كله ، أن « الجنس » وسيلة من وسائل السيطرة فى هذا المجال المحفوف بالمخاطر ...

وإذا كانت وسائل السيطرة تتنوع بتنوع نقاط الضعف من إنسان إلى إنسان ... إلا أن الثابت تاريخياً ، أن « الجنس » هو ملك السيطرة على البشر فى كل العصور ، وإذا كان للمال كوسيلة من وسائل السيطرة ، تأثير السحر على بعض النفوس ، إلا أن الجنس ، يظل سيداً بما يحتويه من آثاره تفرضها طبيعته !

غير أنه لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان حقيقة أخرى بسيطة وبديهية ، هى : أن كلمة « الجنس » لا تعنى المرأة وحدها ، ذلك أن مدلول الكلمة له قطبان أساسيان وإلا انتفى المدلول أصلاً ... هذان القطبان هما : المرأة والرجل معاً ... وإذا كان التاريخ يحتفظ لنا بأسماء رجال تمت السيطرة عليهم بواسطة نساء وقعوا فى حبهن ، فهناك أيضاً – ربما ليس على نفس القدر من الذيوع والشهرة – نساء سيطر عليهن رجال بنفس الوسيلة !

ولقد قادنى هذا السؤال – بالتداعى – إلى مجموعة أخرى من الأسئلة :

فلماذا ارتبط التجسس فى كل عصور التاريخ بالرجل كعنصر أساسى والمرأة كعامل مساعد ؟!

ولماذا كانت كلمة « جاسوس » تعنى رجلاً ولا تعنى « إنساناً » ، بالرغم من ندرة تلك العمليات التى تمت فى التاريخ دون وجود المرأة فيها كعنصر من عناصرها الأساسية ؟

غير أن التساؤلات رست فى النهاية عند سؤال أردت البحث عن إجابة له :

كيف كانت تلك المرأة التى ركبت قطار الجاسوسية ؟!

ما هى مواصفاتها ؟!

هل كانت هناك مزايا ، أو مواصفات خاصة للجاسوسة مهما تغير موقعها ؟!

ثم ... هل هناك اختلاف بين الرجل « الجاسوس » والمرأة « الجاسوسة » ؟!

هل تتميز هذه عن ذاك أو هذا عن تلك بما يجعل للجنس كنوع ، ظواهر معينة تدل عليه ؟!

وراحت الأسئلة تترى بلا توقف ، ووجدت نفسى أحيا فى دوامة من البحث والمقارنات ، واكتشفت ، ليس فجأة بطبيعة الحال ، أن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة من نوع أكاديمى ، دراسة لابد وأن تبدأ بالبحث عن قصص بعض هاته النسوة اللواتى عملن فى حقل الجاسوسية !

وكان لابد – بداية – من تصور لهذا النوع الخطر من أنواع النشاط الإنسانى .

ولا أعتقد أنى – بالخيال – أتجاوز الحقيقة إذا ما قلت إنى أتصور الجاسوسية مثل قطار كانت محطته الأولى عند فجر التاريخ الإنسانى ... قطار يسير بطول هذا التاريخ إلى محطة أخيرة تبدو عند نهاية الجنس البشرى وحياته هو فوق سطح الأرض !!

وإذا كانت بعض النظريات تقول : أن التجسس وجد مع وجود الإنسان على سطح الأرض ، وحتى قبل تكوين المجتمعات ، فإن أصحاب هذه النظرية يردونها إلى تلك الحياة التى عاشها الإنسان الأول عندما كان يشرع فى اصطياد فريسة يتبلغ بها هو وأسرته أو قبيلته ... إنه فى البداية يتقدم من الفريسة فى بطء وخفة متخفياً ، يعاين مكانها ، ومدى قوتها ، ووجودها داخل مجتمعها أو قطيعها ،

شاردة هى أم معها من يحميها ، قوية هى قوية أم ضعيفة ، وطبيعة الأرض من حولها ، ومواطن الضعف أو القوة فيها ... إنه هنا « يتجسس » على الفريسة ، هو هو نفس التجسس الذى يحدث حتى الآن بوسائل مختلفة وأساليب تقدمت بتقدم الحضارة الإنسانية ... حتى إذا حانت اللحظة المناسبة ، انقض على الفريسة واقتنصها !

هذا هو التجسس فى صورته البداية .

ونفس الشىء بالنسبة للتجسس المضاد .

فلقد كان الإنسان ، إذا ما استشعر الخطر من حيوان أو عدو ... أوى إلى كهفه ، وربما تسلق شجرة . وحصن نفسه ... إن الخطر القادم عليه فى حاجة إلى مواجهة لا تستعمل فيها القوة إذا ما كان الخطر القادم « أسدً جائعاً » على سبيل المثال ... وهو فى تحصنه هذا ، إنما يقوم بعملية تجسس مضاد ، أو ما تعودنا أن نطلق عليه خطأ اسم « مقاومة التجسس » !

لكن المدهش فى الأمر ، أن هذا التصور يقودنا إلى حقيقة جديرة بالتأمل : وهى أن التجسس والتجسس المضاد ، هى ، منذ بدء الخليقة ، عمليات عقلية بحتة ... تماماً ، كما أن أجهزة الاستخبارات فى العالم كله اسمها « ذكاء » !! ... ذلك أن القوة لا تستعمل إلا بعد تستنفذ العمليات العقلية تماماً ، وتصبح الفريسة ، أو العدو ، فى وضع يسمح للإنسان بأن يهاجم أو يدافع !

وإذا كان التاريخ قد حفظ لنا على جدران المعابد أو فوق أوراق البردى قصصاً للتجسس أو التجسس المضاد ، أو ربما عمليات من

تلك التى يطلق عليها « الخدمة السرية » ، كتلك العملية الباهرة التى قام بها الفرعون « سقنن رع » – أبو أحمس – ضد الهكسوس فعندما دخل الهكسوس إلى مصر ، انسحب الفراعنة إلى الصعيد ... وكان لابُد من التفكير فى سبب انتصار الهكسوس على جيوش الإمبراطورية المصرية ... وتوصل الفرعون « سقنن رع » إلى أن التكنولوجيا هى السبب فى ذلك الانتصار ، فلقد جاء الهكسوس بالعجلة الحربية التى يجرها الجياد فتنطلق بسرعة شديدة وسط صفوف الجيش كى تبث الرعب والارتباك فى قلوب الجنود الذين تعودوا الحرب وجهاً لوجه ، ولابد أن الحركة السريعة للعجلة الحربية ، وقدرتها الفائقة على المناورة ، كانت مثار دهشة القواد المصريون وارتباكهم أيضاً ... وهكذا توصل « سقنن رع » إلى أنه لابد من الاستعانة بتلك التكنولوجيا الجديدة كى يتم طرد الهكسوس ... وإذا كان صنع العجلة الحربية فى حد ذاته أمراً سهلاً ، إلا أن الحصول على الخيول كان هو العقبة ... وهكذا ، أرسل الفرعون أربع مجموعات من الرجال – الذين نستطيع أن نطلق عليهم دونما تجاوز اسم الفدائيين ، أو رجال الصاعقة – كل مجموعة تتكون من أربعة أفراد ، وكانت مهمتهم هى الحصول على أكبر قدر من الخيول من ذكر وأنثى كى يتم تهجينها حى تصل إلى العدد المطلوب ... وإذا كان التاريخ يحمل لنا أن الرجل لم يحقق حلمه العظيم وإنما حققه ولده « أحمس » إلا أن التكنولوجيا المصرية التى نطلق عليها اسم « التحنيط » قد حفظت لنا مومياء « سقنن رع » الذى قتل فى إحدى المعارك الضارية بضربة سيف شجت رأسه وحطمت

جمجمته ... ويستطيع أى زائر للمتحف المصرى ، أن يرى مومياء ذلك الملك الذى مات دفاعاً عن وطنه ، مسجاة فى تابوتها الزجاجى هناك !!

كانت هذه واحدة من العمليات التى يطلق عليها فى كل أنحاء العالم كلمة « الخدمة السرية » ... وربما كان لمثل هذه العمليات اسماً أو أسماء لم نصل إليها بعد ، لكن الثابت إن كلمة تجسس بحروفها ومعناها ومدلولها ، لم ترد فى البرديات أو على جدران المعابد ... إنما كان رجل الفرعون يقول عن نفسه : « أنا عين فرعون » ... ثم وردت الكلمة بحروفها ومعناها ومدلولها ، لأول مرة ، فى التوراة .

ففى سفر « العدد » الإصحاح الثالث عشر ، سوف نقرأ :

« ثم كلم الرب موسى قائلاً : أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان » !

كانت هذه هى المرة الأولى التى ترد فيها الكلمة واضحة جلية ... وبالتالى ، فإنه من المذهل حقاً ، أن نقرأ كيف حدد نبى الله موسى لمن وقع عليهم الاختيار من بنى إسرائيل للذهاب إلى أرض كنعان ، مهامهم وواجباتهم بدقة تبعث على الدهشة والذهول ... فلقد جاء فى نفس الإصحاح :

« ... فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب . واطلعوا إلى الجبل ، وانظروا الأرض

ما هى ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ، قليل أم كثير ... وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها ، أجيدة أم رديئة ، وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون ، وكيف هى الأرض ، أسمينة أو هزيلة ، أفيها شجر أم ... ... » إلى آخره ما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر « العدد » حول هذا الموضوع .

الملفت للنظر هنا أن موسى عليه السلام حدد بدقة بالغة مهمة رجاله بما لا يخرج عن نفس المهام التى تطلب الآن لمن يذهبون إلى أرض الأعداء مع اختلاف « المظاهر » الحضارية لا أكثر ولا أقل ... إن هذا الذى جاء فى التوراة منذ آلاف السنين ، ليس سوى عملية تجسس فى أدق صورها تبسيطاً وتركيزاً فى نفس الوقت !!

كذلك سوف نجد فى نفس السفر — سفر العدد — فى الإصحاح العاشر ، أن نبى الله موسى يطلب من « حوباب بنى رعوئيل » أن يمضى مع بنى إسرائيل إلى حيث هم ذاهبون ... لكن حوباب يرفض قائلاً له : « لا أذهب بل إلى أرضى وإلى عشيرتى أمضى ، فقال — أى سيدنا موسى — لا تتركنا لأنه بما أنك تعرف منازلنا فى البرية ، تكون لنا كعيون » !!!

وهذا — بالتالى — هو ما نطلق عليه اليوم اسم « التجسس المضاد » ... إن نبى الله ينبه حوباب إلى أنه يعرف عن بنى إسرائيل كل شىء ، فإذا ما جاء الأعداء وسألوه عنهم ، فلربما أعطاهم من المعلومات ما قد يضر ببنى إسرائيل !

وإذا كانت هذه هى البداية التى حفظها لنا التاريخ مكتوبة ... فإن قطار التجسس يقودنا – بقليل من التفكير – إلى حقيقة أخرى هى :

إن الجاسوسية نشاط إنسانى دائب ودائم لم يكف عن الحركة والتطور ومواكبة الصعود البشرى فى مدارج الحضارة مواكبة تلتصق به التصاقاً عضوياً ... ذلك أن هذا القطار العجيب ، قادر على تغيير آلاته وعجلاته ذاتياً بتغيير المعرفة الإنسانية وتطورها حضارة بعد أخرى ، وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وعاماً بعد آخر ، ويوماً بعد يوم ، وربما وصل الأمر الآن إلى حد أنه يتغير من ساعة إلى أخرى ... إنه قطار من نوع غريب حقاً ، هو قادر على استيعاب كل ما هو جديد فى العلوم بل والفنون والآداب أيضاً ... وإذا كنت أرى وأرجو إلا أكون مخطئاً – إن علم المخابرات ، وهو يشمل الجاسوسية والجاسوسية المضادة وكل ما يندرج تحتهما أو بينهما من أفرع أو مجالات استحدثت مع التطور العلمى ، قد أصبح فى العصر الحديث هو « علم العلوم » ... فمرد ذلك . إلى أنى أرى أن عباءة هذا العلم تتسع لكل علوم البشرية بلا استثناء ... بل ، قد يندهش البعض إذا ما عرفوا أن جزءاً هاماً من التطور الإنسانى الذى نطلق عليه كلمة : « تكنولوجيا » ، مرده أساساً – فى العصر الحديث بالذات – إلى نشاط أجهزة المخابرات وصراعها الدائم من أجل تطوير معداتها وأساليبها وأدواتها لبلوغ أهدافها أو لإبطال أهداف الأجهزة المعادية .

وهكذا ظلت التجربة الإنسانية تخوض فى هذا الحقل حسب ظروف كل مرحلة وتاريخها وإمكانياتها ومدى

تقدم العلوم أو تشابك المصالح فيها ، حتى قامت الدول والامبراطوريات وتحددت المصالح ووضعت الحدود ... وظل قطار الجاسوسية يحمل فى عرباته العديد من الرجال والنساء معاً ، يغادره من انتهت مهمته ، أو انكشف أمره ... وقد تطوى قصته صفحات التاريخ فتنزوى فى الأقبية ، أو تموت فى صدور القلة الذين عرفوها ... وقد ينكشف أمره فيلقى مصيره ويصبح غير ذى بال أو خطر !

لكن القطار دائماً ما يستقبل ركاباً جدد ، أو دماءً جديدة ... يصعد إليه من يلقيه قدره أو قدراته من هذا النفر من الناس الذين نعرفهم باسم « الجواسيس » ، فينجزون أو يسقطون ، يقومون بواجبهم حيال أوطانهم ، أو يخونون هذه الأوطان رغبة فى مال أو حباً فى امرأة أو رجل أو إيماناً بمبدأ أو عقيدة ... ويؤدى هؤلاء أدوارهم إلى أن تنتهى مهماتهم فيعتزلون . أو يسقطون لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة .

غير إنى توقفت أثناء البحث والتنقيب فى حياة هاته النسوة اللواتى مارسن هذا العمل البالغ الخطر ، أمام ظاهرة ملفتة للنظر .

ذلك أن كل قصص الجواسيس من النساء اللواتى اشتهرن فى التاريخ أو عرفن بالبراعة والذكاء تكاد أن تخلو من الجنس إلا فيما ندر... وإذا كان البعض منهن قد استعملن الجنس للوصول إلى مآربهن... إلا أن نسبة لا بأس بها قمن بما قمن به تلبية لرغبة صادقة فى أن يلعبن هذا الدور الخطير ، وأن يعشن على حافة الجحيم ، لمجرد

الرغبة فى الاستمرار وسط لهيب الخطر ووخزات الخوف المميتة ... أنها تلك النشوة الغامضة التى تعترى هؤلاء الذين تعودوا الإحساس بالخطر وأصبحوا لا يجدون للحياة طعماً بدونه ... إن الأمر يبدو فى بعض جوانبه – وأرجو ألا أكون مبالغاً فى نظر البعض – وكأن كل الدوافع تنتفى وتذوب فى دافع واحد أسمى هو : الاستمرار فى ركوب الخطر !!!

ولم تكن هذه هى الظاهرة الوحيدة التى توقفت أمامها عند النساء اللواتى ركبن قطار التجسس ... فلقد توقفت أمام ظاهرة أخرى تكاد أن تكون طابعاً مميزاً لقصص هاته النساء المغامرات وهى تلك النهاية المأساوية التى تنتهى بها قصص من انكشف أمرهن .

إننا نقف أمام قصة « مرجريتا جروترود زيللى » التى عرفت فى التاريخ باسم « ماتا هارى » ، كى نشاهد نهايتها المأساوية ، ليست فى فرقة إطلاق النار التى اخترقت رصاصات بنادقهم صدرها الجميل الذى كثيراً ما أغرى جنرالات فرنسا بالبوح بأسرار الجيش إبان الحرب العالمية الأولى ... وإنما نهايتها المأساوية تتمثل فى امتدادها إلى ابنتها – ابنة ماتا هارى – التى كانت تبعد عنها بآلاف الأميال ... لقد أعدمت ماتا هارى فى يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩١٧ ، وكانت « باندا ما كلويد » – ابنتها التى تحدثنا عنها فى السطور السابقة – لا تزال طفلة فى أندونيسيا لا تعرف من أمر أمها شيئاً سوى أنها ترسل لها أجمل الهدايا وأفخر الثياب ... ولم تكن هذه الطفلة تدرى أن ثمة قدراً تمتد خيوطه من الأم سوف يلاحقها بعد نيف وعشرين عاماً لتخوض فى نفس الحقل وإنما بقدرة أكبر وذكاء أكثر حدة ...

إن قصة باندا ماكلويد تعتبر شيئاً مذهلاً بكل المقاييس ... وإذا كانت ماتا هارى قد استعملت سحرها فى التأثير على جنرالات الامبراطورية الفرنسية ، فإن باندا ، رغم جمالها الصارخ الذى يذهب البعض إلى أنه كان يفوق جمال أمها ، لم تلجأ إلى السحر أو الجنس ، ولم يكن هذا واحداً من وسائلها ... رغم أنها انتقلت من معسكر إلى معسكر ، تجسست لليابانيين وضدهم ، وللأمريكيين ، ووصلت إلى زعيم الصين الأسطورى « ماوتسى تونج » وجاء عليها وقت بدت وكأنها تعمل من وحى ذكاءها أو إحساسها ، وأنها أصبحت بلا رئاسة وبلا ضابط ، وانتهت ذات فجر دامس فوق ثلوج كوريا الشمالية ، ولولا المصادفة ، لما عرف أحد مصيرها حتى الآن .

ولماذا نذهب بعيداً ...

إن حكمت فهمى كانت من أشهر فنانات مصر فى الأربعينيات ولقد شاركت إبان الحرب العالمية الثانية فى واحدة من أعظم عمليات التجسس فى ذلك الوقت ... ولم يكن الجنس دافعها ، ولا المال أيضاً ... إن كل الشواهد تقول أنها اندفعت لمشاركة هانز ابلر أو « حسين جعفر » فى تجسسه على الإنجليز ، فى مصر بدافع وطنى ... شأنها شأن الكثيرين من المصريين إبان الحرب العالمية الثانية ... حتى إذا قبض عليها وزُج بها فى السجن ، خرجت بعد عام واحد دون أن تتفوه بكلمة ، أو تقابل صحفياً ، أو تحاول نشر قصتها التى كانت تعلم علم اليقين أنها سوف تدر عليها مبلغاً محترماً من المال ... خرجت حكمت فهمى من السجن الذى دخلته بتهمة سياسية ، ولم يكن فى هذا ما يشينها خاصة وأنها كانت تعمل ضد

جيش الاحتلال الذى كان الشعب كله يعمل ضده ، خرجت من السجن لا لكى تعود إلى الأضواء أشد تألقاً ، ولكنها آثرت الابتعاد ، بل الاعتزال ، والعودة إلى بلدتها فى الصعيد ، كى تنزوى هناك !!!

بعد نشر فصول هذا الكتاب فى عدد من الصحف والمجلات العربية ، صدر كتاب بعنوان « مذكرات حكمت فهمى » ، من اعداد الأستاذ حسين الملا ، والمذكرات فى مجموعها تؤيد كل كلمة كتبتها عن هذه الفنانة التى رحلت عن عالمنا دون أن ينتبه أحد إلى حقيقة الدور الوطنى الذى لعبته !!

إن أحداً ممن أرخوا لعملية حسين جعفر أو « هانزابلر » ... لم يتوقف أمام الدور الخطير الذى لعبته حكمت فهمى ، وربما كان السبب فى ذلك أن مصرياً واحداً لم يتعرض لتسجيل تلك القصة ، ويبدو أنهم اعتبروها قصة أجنبية ... لم يتعرض لتسجيل هذه العملية سوى كتّاب أجانب ، لعل أشهرهم كان المراسل العسكرى البريطانى « ليونارد موزلى » ، والذى كان فى القاهرة أثناء العملية ، وكان له دور – هامشى بطبيعة الحال – فيها ، وله علاقة سابقة ببطلها الشاب الألمانى الأصل المصرى الجنسية الذى عرف باسم « حسين جعفر » ... ولقد وضع موزلى تحقيقه للقصة فى كتاب بعنوان « القط والفيران » !

ولقد تجاهل السيد موزلى الدور العظيم الذى لعبته حكمت

فهمى ، بل ربما أجرؤ على القول بأنه عاملها فى كتابه بتعال ممجوج... وبالرغم من هذا ، فلم يجرؤ ، لا هو ولا غيره ممن تناولوا العملية ، على القول بأنها تقاضت قرشاً واحداً نظير ما قامت به ، ولم يجرؤ أحدهم على القول بأنه كانت هناك علاقة بينها وبين حسين جعفر مما ينفى تماما وجود المال أو الجنس كدافع للتجسس ... ولا يبقى من عناصر التجسس الثلاثة ، إلا المبدأ ، أو الوطنية التى من أجلها فعلت حكمت ما فعلت !

... ...

... ...

وعلى كل فالتاريخ حافل وملىء ...

هناك – مثلاً – تلك السيدة التى كانت تدعى « كارمن مارى مورى » ، التى عرفت أبان الحرب العالمية الثانية باسم « الملاك الأسود » لفرط قسوتها التى كانت لذتها العظمى !

وهناك قصة تلك الفتاة الفرنسية التى كانت تدعى « ميشلين كاريه » التى عرفت باسم القطة ، والتى بدأت حياتها كجاسوسة لصالح الوطن ، ثم انتقلت إلى معسكر الأعداء بسهولة لافتة للنظر ... لسوف يتقزز الكثيرون من هذه الفتاة ، لكنهم بالقطع سوف يرون شيئاً آخر إذا ما أمعنوا التفكير ، مثلما فعل الضمير الفرنسى ممثلاً فى رئيس الجمهورية ، الذى خفف حكم الإعدام عليها إلى السجن مدى الحياة !

وهناك تلك الفذة « سيبيل ديكلور » التى عرفت باسم « عروس الراين » ، والتى أتت من الألاعيب ما دوخ رجال مخابرات الحلفاء ، فاعترفوا لها بالقدرة والذكاء معاً .

أما « العميلة استيفانيا » فهذه هى الأستاذة ...

نعم ، أقولها وأعنيها ، فلقد كانت هذه السيدة أستاذة فى فن التجسس ، لقد استطاعت ، وهى تعمل لحساب مخابرات ألمانيا الشرقية ، أن تخترق المخابرات الأمريكية وأن تعمل فيها كى تصبح كل الأسرار بين يديها ...

و ...

ولقد حاولت أن أنوّع فى الأهداف والمرامى لكل جاسوسة ، غير أن كل هذا ، ليس سوى قطرة فى بحر بلا شطآن .

صالح مرسى



زهرة الشمس

أو ... ابنة ماتا هارى !

١

لم تحظ جاسوسة فى العالم بمثل شهرتها ، ربما لأنها استطاعت بجمالها الخارق وسحرها النافذ ، أن تسيطر على عدد كبير من جنرالات فرنسا أبان الحرب العالمية الأولى ... وربما لأنها كانت جاسوسة من نوع خطير – فى زمانها – وربما فريد . فلقد نقلت إلى ألمانيا من أخبار الجيش الفرنسى ، ما لم تكن تستطيعه كتيبة كاملة من الجواسيس ... وربما ... ربما لأنها تركت وراءها مع الثروة الهائلة من المجوهرات التى أغدقها عليها المعجبون والمتنافسون على قلبها من ضباط الجيش الفرنسى ، أسراراً لم يستطع أحد أن يفض أختامها حتى الآن !

اسمها الحقيقى **« مارجريتا جروترود زيللى »** ... راقصة هولندية ، ولدت فى ٧ أغسطس (آب) عام ١٨٧٦ ، وتولت فرقة ضرب النار إعدامها فى أحد ضواحى باريس ، فى فجر يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩١٧ . بعد اكتشاف أمرها ، وبعد أن صنع هذا الاكتشاف دوياً هائلاً فى العالم كله !

هذه هى ماتا هارى ، أشهر جاسوسة فى التاريخ !

ولأنها هولندية ، فلقد عاشت جزءا كبيرا من حياتها فى « باتافيا » عاصمة جزيرة جاوة الأندونيسية ... وباتافيا هذه هى التى أصبح اسمها بعد الاستقلال « جاكارتا » وأصبحت عاصمة لأندونيسيا كلها .

كانت جاوة فى تلك الأيام – شأنها شأن آلاف الجزر الأندونيسية المتناثرة فى المحيط – مستعمرة هولندية ... عاشت فيها ماتاهارى سنوات ليست غامضة تماماً ، كما أنها ليست واضحة بقدر يكفى لمعرفة الكثير من التفاصيل ... غير أن الثابت ، أنها تركت وراءها فى « باتافيا » أو « جاكارتا » عندما غادرتها إلى باريس فى عام ١٩٠٣ ، طفلة لا يتعدى عمرها ثلاثة أعوام ... تركتها فى رعاية رجل أندونيسى كان يعمل ساقياً فى أحد النوادى الليلية ... طفلة أضيفت إلى آلاف الأطفال الذين اختلطت فى عروقهم الدماء الأوروبية مع الدماء الآسيوية ...

وإذا كان هؤلاء الأطفال « المخلطين » ، قد تركوا فى الهند مثلاً ! – علامات وقصص ومآسى تبدو وكأنها جميعاً من نسج الخيال ، فإنه فى كل مكان فى آسيا ، ترك الأوروبيون بصماتهم على الآلاف الذين وجدوا أنفسهم لا منتمين ... فلا هم أوروبيون ، ولا هم آسيويون من أبناء البلاد ... ومعنى هذا باختصار ، أن والد طفلتنا هذه كان آسيوياً ، وبالرغم من ذلك ، فلقد سُجلت الطفلة فى شهادة الميلاد تحت اسم : « باندا ماكلويد » !

غادرت ماتا هارى الجزر الأندونيسية إلى فرنسا عام ١٩٠٣ تاركة طفلتها وراءها فى رعاية هذا الساقى وزوجته ... كانت وقتها فى السابعة والعشرين من عمرها ، تتمتع بجمال يأخذ بعقول أعظم الرجال وقاراً !! ... أكسبتها الشمس الاستوائية لوناً فريداً جعل بشرتها سحرا من نوع خاص ، ولا أحد يعرف – على وجه اليقين – لماذا هاجرت ماتا هارى من جاوة بالرغم من مكانتها هناك كواحدة من بنات الجالية المتميزة المستعمرة ... كما أن أحداً لا يعرف أيضاً لماذا هاجرت إلى باريس بالذات، ولم تعد إلى هولندا موطنها الأصلى ... غير أن استقراء الأحداث يشى بقصة مشتعلة جمعت بين تلك الراقصة الهولندية البارعة الجمال ، وشاب من أبناء البلاد لازال الغموض يحيط باسمه حتى الآن ... قصة حب كانت ثمرتها تلك الطفلة التى أطلقت عليها اسم « باندا ماكلويد » ... طفلة تنبىء ملامحها بأن الدماء الجاوية تسرى فى عروقها حارة متأججة ... فهل هربت « مارجريتا جروترود زيللى » التى عرفت فى التاريخ باسم « ماتاهارى » من قصة حبها تلك ؟! ... هل كانت قصة الحب هذه هى السبب فى هجرها لطفلتها بعد أن سلمتها إلى ذلك الساقى الأندونيسى وزوجته ... وهل كانت هذه القصة هى السبب الذى جعلها تهاجر إلى فرنسا بدلاً من هولندا حتى لا يصبح من السهل على حبيبها أن يلحق بها هناك ؟!

أسئلة ... عشرات الأسئلة التى لا تزال حائرة حتى الآن . ولا أحد يستطيع الزعم بأنه يعرف الحقيقة كاملة ... لكن الجميع يعرفون أنها هبطت باريس عام

١٩٠٣ كى تتألق فى العاصمة الفرنسية تألقاً دفع باسمها إلى سماء مدينة النور عنوانا لفن رفيع وجمال يأخذ بالألباب !

• • •

فى عام ١٩٠٧ استطاعت المخابرات الألمانية أن تجندها للعمل لحسابها ، وقبل أن تندلع شرارة الحرب العالمية الأولى ، سافرت « ماتاهارى » إلى برلين فى جولة فنية استقبلت فيها استقبالاً حافلاً ... لكن أحداً فى ذلك الوقت لم يكن يدرى أن الغرض الحقيقى وراء تلك الرحلة ، لم يكن هو الفن ، بل كان ستاراً كى تلتحق « ماتا هارى » بما يمكن أن نسميه إحدى مدارس التجسس هناك ... حيث تلقت هناك تدريباً مكثفاً ، عادت بعده إلى باريس ، كى تمارس مهمتها الخطيرة ... تلك المهمة التى قادتها إلى الوقوف ذات فجر فى إحدى ساحات قلعة « فنسين » القريبة من باريس – أمام فرقة ضرب النار بعد أن حوكمت ، وأدينت ، وحكم عليها بالإعدام !!

وعندما اخترقت رصاصات فرقة ضرب النار صدر « ماتاهارى » الجميل ، وسقط رأسها فوق صدرها وقد لفظت أنفاسها الأخيرة ... لم يكن أحد يعرف ، أن آخر ما فعلته ، هو كتابة خطاب تسيل من كلماته الحنان ... كان الخطاب موجهاً إلى ابنتها « باندا » التى تعيش فى جزيرة جاوة ... وبالتالى ، فلم تكن « باندا » تعرف – حتى ذلك الوقت – شيئاً عن أمها ... كل ما كانت تعرفه ، أن « مامى » ترسل لها من أوروبا أجمل الثياب والكثير من النقود ، وأنها تحبها حباً عظيماً تنضح به خطاباتها المنتظمة التى كانت

ترسلها إلى والديها الأندونيسيين ، وبعضا من الصور كانت تشى بجمال الأم الباهر ... تلك الأم التى أعدمت رمياً بالرصاص ، ولم تكن قد تجاوزت الأربعين من عمرها ، إلا بعام وبعض عام !!

• • •

وحتى بلغت باند ماكلويد سن الرابعة عشر ، لم يكن يشغل بالها شيئاً ، ولم تكن تعرف شيئاً عن موت أمها أو إعدامها ... حقا ، كانت تعيش فى أطراف « باتافيا » فى كوخ والدها الأندونيسى وزوجته ... إلا أنها كانت قد تلقت قدراً كافيا من التعليم أهلها لأن تجد لنفسها مكاناً فى المجتمع كفتاة اختلطت فى عروقها دماء الهولنديين بدماء أبناء جاوة ... ففى المدرسة التى ألتحقت بها ، تعلمت أصول التعامل فى هذا المجتمع الاستعمارى الذى نسيه العالم الآن ... مجتمع كان يتكون من سادة هم الذين يستعمرون البلاد ، وعبيدهم أصحاب البلاد الأصليين ... وفيما بين هؤلاء وأولئك . كان ثمة مكان لهؤلاء المخلطين ، مكان لا لون له ، يقبلهم البعض من هؤلاء أو أولئك ، ويرفضهم الآخرون ... لكنهم فى النهاية كانوا يتمتعون ببعض المميزات الاجتماعية ، خاصة ، أنهم شبوا عن الطوق وقد حباهم الله ، واختلاط الدماء ، بجمال غير مألوف ، جمال تجتمع فيه نضارة الأوروبيون ، بملامح الآسيويين وسحرهم !!

فى أحد أيام ديسمبر عام ١٩١٧ . أى بعد إعدام ماتاهارى بأقل من شهرين . عادت باندا إلى كوخ والديها بالتبنى وهى تضج بالحياة والنشاط ... كانت قادمة لتوها من أحد النوادى المخصصة للأوروبيين بعد أن مارست رياضة التنس التى كانت تعشقها مع

بعض الصديقات والأصدقاء ... وعندما دخلت إلى البيت وجدت والديها الأندونيسيين فى حالة من الحزن وشت بما كانا يعانيان منه .. ولقد حاولت باندا أن تعرف سبب ذلك الحزن دون جدوى ، راحت تمطر والديها بالأسئلة لكنها لم تجد إجابة سوى دموع ذرفتها الأم فى غزارة .

ولم تعرف باندا سر ذلك الحزن إلا بعد عامين كاملين ، عندما أصبحت فى التاسعة عشر من عمرها !

فى ذلك الزمان ... كان سن التاسعة عشر بالنسبة للفتاة الأوروبية هى سن الزواج الطبيعى... وقد عادت باندا فى يوم من أيام عام ١٩١٩ إلى البيت ، كى تزف إلى والديها خبراً سعيداً ، فلقد تقدم لطلب يدها ، السيد « ويلهلم فان ديرين » . وكانت هى قد قبلت العرض... قالت لوالديها :

« أنا واثقة أنى سأكون سعيدة معه ! »

لم يكن الخبر غريباً على الوالدين ... ففى مدينة صغيرة مثل باتافيا يتمتع فيها الاستعماريون البيض بكل المميزات والخبرات ، ويجلسون فوق قمة المجتمع ... تصبح رغباتهم أوامر ، ويصبح الانتساب إليهم نوعاً من الشرف ... ولما كانت باندا تحمل فى عروقها دماء أوروبية ، فإن الأمر بدا طبيعياً إلى حد كبير !

ثم – وعلى الجانب الآخر – لم يكن هناك عيب فى السيد « فان ديرين » ... فلقد كان موظفا كبيراً فى الحكومة الهولندية ، كما كان – بالطبع – على قدر لا بأس به من الثراء ، وهو – بطبيعة الأمور – كان يتمتع بمكانة رفيعة فى مجتمع جاوه ... ولم يكن يعيبه أنه يكبر

باندا بثلاثين عاما ، فلقد كان هذا أيضا ، فى ذلك العصر ، أمرا طبيعياً للغاية ... فلماذا إذن كل هذا الوجوم الذى اجتاح الوالدين عندما زفت إليها الخبر ، وبعد أن أكدت لهما أنها واثقة من أنها سوف تكون سعيدة مع « ويلهلم » !

سألتهما باندا وقد انقبض قلبها ، إن كان يعترضان على زواجها من السيد « فان ديرين » ، وكانت دهشتها بالغة عندما أجاباها بالنفى ... ولم يكن أمامها سوى أن تلح فى السؤال :

« إذن ... لماذا كل هذا الوجوم الذى أصابكما ؟! »

ولم يحظ سؤالها بجواب أكثر من نظرات يسيل منها الحزن ، فعادت إلى الإلحاح :

« هل تخفيان عنى سراً ؟! »

وكان الرجل قد حسم أمره قال :

« نعم يا ابنتى ! »

وأردفت الأم :

« مادمت قد اتخذت قرارا بالزواج . فلابد لك أن تعرفى كل شىء ! »

• • •

فى ذلك اليوم عرفت باندا سرها الهائل !

راح والداها الأندونيسيين يتحدثان إليها فى بطء من يختار كل كلمة !

عرفت باندا لأول مرة أنها ابنة « ماتاهارى » الجاسوسة التى عملت لحساب الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، كما عرفت أن أمها أعدمت رمياً بالرصاص ، وأن قضاتها قد عاملوها أثناء المحاكمة بمزيد من الاحتقار ... و ... ولكن ..

« ولكن كل من عرفوها أحبوها وتمرغوا تحت قدميها ولهاً وحباً !! »

هكذا قال الأب ، فأردفت الأم :

« أما هى فلم تحب فى الدنيا أحدا قدر حبها لك !! »

نهض الأب إلى حيث دولاب صغير يضع فيه أشياءه الثمينة ، أخرج منه خطاباً مغلقاً وعاد به إلى باندا التى كانت مصعوقة تماماً ، وهو يقول :

« كان هذا الخطاب هو آخر ما فعلته فى حياتها ، وهو موجه إليك ! »

امتدت يد باندا إلى الخطاب وكانت أصابعها ترتجف ، سرى إلى أذنيها صوت أمها الأندونيسية :

« لقد أحببتك يا باندا أكثر من أى شىء فى الدنيا ، وكنت أنت آخر من فكرت فيه قبل أن يطلقوا عليها النار ! » .

• • •

لم تتحدث باندا عن ذلك اليوم فيما بعد ... ولا يذكر أحد ممن عرفوها أنه سمع منها شيئاً عن أمها ، ولا عن فحوى الخطاب الذى ظلت تحتفظ به حتى آخر يوم فى حياتها ، تنقله معها من مكان إلى

مكان ، يشهد معها تصاريف قدرها المذهل ... وعندما أعدمت هى الأخرى ذات فجر رمياً بالرصاص ، كان هذا الخطاب ضمن تركتها الشديدة الفقر !!

• • •

بعد ذلك اليوم الذى عرفت فيه باندا سرها ، بثلاثة أشهر ، تم زفافها على السيد « ويلهلم فان ديرين » !

ويحكى بعض أصدقاؤها أنها كانت تبدو فى ذلك اليوم ، وقد رصعت رأسها بتاج من زهور جاوة البديعة ، مثل حلم يزف إلى رجل بدا للجميع وكأنه يعيش أعظم وأسعد لحظات حياته !

ورغم فارق السن بين باندا وبين زوجها ، فلقد عاشت معه فى سعادة مقيمة ... انتقلت بعد الزواج إلى بيت من أجمل بيوت باتافيا ... وعاشت عامين تمرغت فيهما فى جنة أنستها كل شىء ... حتى إذا كان يوم ، عاد السيد « فان ديرين » من عمله وهو يرتجف والآلام تمزق صدره ... طلب الرجل من زوجته أن تستدعى الطبيب ، فاستدعت أكبر أطباء باتافيا وأكثرهم حنكة ... لكن الطبيب لم يستطع أن يضع شيئاً ، ففى صباح اليوم التالى مات السيد « ويلهلم فان ديرين » بحمى استوائية لم تكن معروفة فى ذلك الوقت !!

... ...

... ...

ولقد مضى وقت طويل قبل أن تفيق باندا من صدمتها تلك ، وهى ... عندما انتقلت إلى بيتها الجديد كانت قد أحست بالأمان فاستكانت لذراعى زوجها الذى أصبح بالنسبة إليها فى مقام الأب والأم معاً ... ولكن ، ها هى الآن قد عادت وحيدة فى هذا العالم ... لا أب لها تعرفه ، وأمها سر تطويه فى جوانحها بحرص من يخشى آلاف المخاطر !

لم تكن هناك متاعب مالية بطبيعة الحال ، فلقد ترك لها زوجها ثروة لا بأس بها ... ثروة مكنتها من دراسة الآداب والفنون ، ودفعتها الدراسة إلى لقاءات منتظمة مع صفوة المجتمع من فنانين ومفكرين وأدباء وحكام ... شهر بعد آخر بدأت باندا تعود وتتعود على حياتها الجديدة ... وتجمع حولها الأصدقاء والمعجبون وطالبى الود ، لكن اختيارها لم يقع على أحدهم ... أضفى الحزن الدفين فى صدرها على جمالها سحراً وغموضاً أشعلا الحب فى قلوب العديد من الرجال ... وأصبح بيتها صالوناً تجتمع فيه النخبة من مجتمع باتافيا الأرستقراطى ، صالون كانت تناقش فيه الفنون والآداب والسياسة أحياناً ... وبدا وكأن الحياة عادت تفتح لها ذراعيها من جديد ... لولا أن أندلعت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٣٩ ... وبعد قليل دخلت اليابان هذه الحرب ، وراحت جيوشها تجتاح المستعمرات الإنجليزية والهولندية فى آسيا ... وما هى إلا شهور ، حتى تغيرت الطبقة الأرستقراطية المالكة فى جاوة ... هرب الهولنديون أمام جحافل اليابانيين الذين احتل جنرالاتهم قمة المجتمع ... وأصبح القنصل اليابانى « ياكيماتو » هو الحاكم الجديد للجزيرة !

• • •

ولم يكن هذا كله يعنى باندا الجميلة فهى - أولاً - لم تكن تهتم بالسياسة أو تحبها ... وهى - ثانياً - كانت أقرب إلى الأندونيسيين منها إلى الهولنديين الذين أصبحوا مطاردين ... كان أهم ما يعنيها فى هذه الدنيا ، أن يظل سرها دفيناً ، وألا يعرف أحد من كانت أمها ... فلقد كانت من الدراية بحيث تعرف معنى أن تكون جاسوسة بالنسبة لليابانيين غلاظ القلوب ، بل أنها كانت تعرف أكثر ، ما الذى يعينه أن تكون ابنة ماتاهارى بالنسبة للأوروبيين ... إن فى هذا قضاء كاملاً عليها وعلى العديد من صداقاتها ...

ومرت سنوات ...

حتى كان يوم من أيام مايو عام ١٩٤٣ .

فى ذلك اليوم كان الجو شديد الحرارة ، تخطت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهجع الناس فى البيوت هربا من الحرارة الاستوائية الملتهبة . عندما دق باب البيت . وهرول الخادم كى يرى من الطارق ... كانت باندا فى غرفتها بالطابق العلوى عندما سمعت صوتاً أجشاً وقحا يسأل عنها ، ودار حوار لم تتبينه جيداً ولم يكن يعنيها أن تتبينه بين الضيف السمج وبين الخادم الذى جاءها بعد لحظات مهرولاً :

« عفواً سيدتى ولكن ... ... »

« ماذا هنالك يا على ؟! »

« ثمة زائر يصر على لقائك يا سيدتى ! »

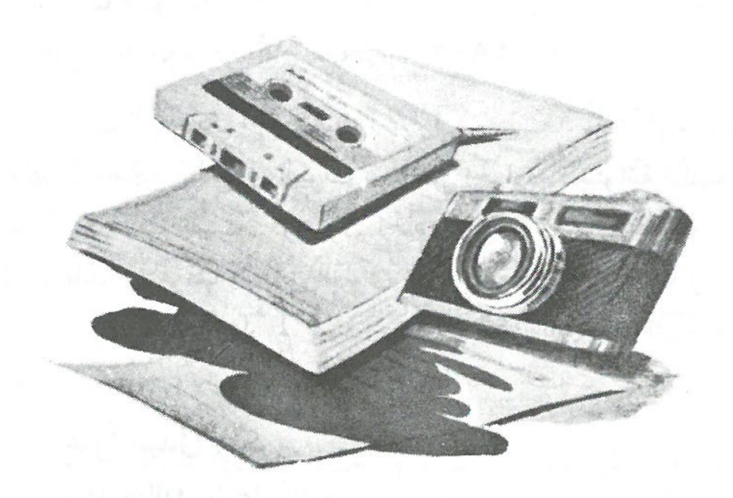
« فى مثل هذا الوقت !! »

« فى مثل هذا الوقت !! »

« ما اسمه؟! »

« يقول أن اسمه زيللى !!! »

وسقط قلب باندا بين ضلوعها ... إن اسم زيللى هو اسم عائلة أمها ... فهل هناك من يعرف سرها ؟!





فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو عام ١٩٤٣ . وقبل أن يأتى إلى بيت باندا ماكلويد ذلك الزائر الغريب... كانت هى تشعر بكثير من القلق وربما الاكتئاب أيضا ... فمنذ أن احتل اليابانيون الجزر الأندونيسية ، وارتفع علمهم يرفرف فوق باتافيا بدلاً من العلم الهولندى ... تقلص صالون باندا الأدبى والفنى تقلصاً واضحا فى انتظار ماسوف تسفر عنه الأيام!... كان جزءاً كبيراً من الذين يترددون على صالونها من الهولنديين الذين أصبحوا الآن مطاردين ... وإذا كان هؤلاء قد تعودوا النظر إلى المختلطين – أمثال باندا ماكلويد – نظرة تعال واحتقار ... فلقد استطاعت بكياستها وبعد نظرها ، ثم بزواجها من هولندى محترم ، أن تكسب لنفسها مكانة خاصةفى المجتمع جعلتها تتمتع بما كانت تتمتع به الطبقة الحاكمة نفسها ... أما الآن فإن الوضع قد اختلف كثيراً ... ذلك أن المستعمرين الجدد وجدوا – كالعادة – منذ الأيام الأولى لوصولهم إلى باتافيا ، من يتعاون معهم ، ووجدوا من يشى

بما كان قائماً فى الجزيرة قبل أن تطأ أقدامهم أرضها ... فما الذى قاله هؤلاء عنها ؟! ... وكيف كان البعض ينظرون إليها فى تلك الأيام ؟!

كان هذا وحده كافياً لأن يبعث بالقلق إلى نفس باندا! خاصة وأن اليابانيين عاملوا أعداءهم بقسوة كانت حديث المدينة ... وبالرغم من ذلك لم يقف الأمر عند هذا الحد ، ففى ذلك اليوم من أيام مايو عام ١٩٤٣ ، أصدر الحاكم العسكرى اليابانى مرسوماً صارما يحرم فيه اختلاط الجنود اليابانيون بالفتيات المخلطات فى أندونيسيا !!

وهكذا وجدت باندا نفسها فى موقف لا تحسد عليه ، خاصة وأن اليابانيين راحوا يشجعون جنودهم على الاختلاط بالفتيات الأندونيسيات تحت زعم أنهم جميعاً آسيويون . وأن اليابان إنما اجتاحت الجزر الاندونيسية كى تحررها من المستعمر الأوروبى الدخيل ... ولم يكن مفيداً أن تعرف باندا أن هذا الزعم ليس سوى ستار يخفى وراءه رغبة اليابانيين فى الحفاظ على الأيدى العاملة الأندونيسية فى مزارع المطاط الشاسعة ، وحتى تبقى العجلة الاقتصادية فى الدوران ، والمصانع فى الإنتاج .

وعلى كل ، فلقد سرت إشاعة فى باتافيا تقول : أن الحاكم العسكرى اليابانى لديه قناعة بأن الفتيات المخلطات - أمثال باندا - من الممكن أن يكون ولاؤهن للهولنديين الذين تجرى دماؤهم فى عروقهن ... وبالتالى . من الممكن أن يصبحن عيوناً للهولنديين على اليابانيين ...

كان معنى هذا المرسوم الذى صدر ، أن باندا سوف تصبح ، بالنسبة للسادة الجدد فى الجزيرة ، شبه منبوذة ... وكان معناه أيضاً أن عليها أن تجد طريقاً جديداً للحياة فى ظل العلم اليابانى ... أو ... أو أن تفكر فى الهرب من جاوة ... ولكن إلى أين ؟! ... و ... وقبل هذا ، كيف ؟!

وهكذا ، وعندما شارفت الساعة على الثالثة بعد الظهر ، واشتدت درجة الحرارة وخلت شوارع باتافيا من المارة وران على المدينة سكون آسن ... كانت باندا تشعر مع الاكتئاب بالاختناق والخوف ... أحست أنها بحاجة إلى قليل من شراب الأرز المنعش ، ذلك الشراب الوطنى الذى كان قد شح فى تلك الأيام وأصبح العثور على القليل منه يستلزم مغامرات غير مضمونة العواقب فى السوق السوداء !

ما أن أعدت كأسها حتى وصلت إلى سمعها تلك الدقات الغليظة على الباب الخارجى ، كما سمعت حفيف أقدام الخادم على أرض البهو ثم صوت الباب وهو يفتح ثم صوت الزائر السمج وهو يسأل :

« **أليس هذا بيت السيدة باندا ماكلويد** » ؟!

و ... ولم تتبين باندا ما دار من حوار بين الضيف والخادم ... غير أنها ، عندما أخبرها الخادم باسم « زيللى » ، أدركت أنها مجبرة على أن تراه ... فطلبت من « على » - هذا هو اسم الخادم - أن يقص عليها ما حدث بالضبط .

تردد الخادم خجلاً ، فهتفت فى صوت خفيض :

« مهما كانت تصرفاته وألفاظه ، فلابد أن أعرفها قبل أن ألتقى به يا على ! » ..

وقال لها على أنه ما أن فتح الباب حتى خطا هذا الرجل الأوروبى إلى الداخل وهو يزيحه من طريقه بصلف ، وعندما حاول الخادم أن يحتج ، زمجر ذلك الأوروبى قائلاً :

« أريد أن أقابل صاحبة هذا البيت وعليك أن تخبرها بالأمر ! »

وطلبت باندا من « على » أن يخبر الزائر أنها فى الطريق إليه ... وفى الدقائق التى استغرقتها فى استبدال ملابسها . كان عقلها يعمل بسرعة ... كانت هناك مجموعة من الحقائق لا سبيل إلى الفرار منها ، أولها : أن هذا الزائر يزعم أنه قريبها . وكان معنى هذا ، أنه يعلم سرها ... وثانيها : أن تصرف السيد « زيللى » هذا ينبىء عن معرفة بحقيقة أمها ، وأنه قد جاء للتهديد وليس للمساعدة ... أما الحقيقة الثالثة : فهى أنها ليست فى مركز يسمح لها بالمساومة أو المناجزة ، وأن عليها ، مهما كان الأمر ، أن تسوس هذا الرجل الذى يزعم أنه قريبها !

• • •

انتهت باندا من ارتداء رداء من الحرير الصينى الفاخر ، غادرت غرفتها وراحت تهبط الدرج الرخامى إلى الطابق الأول ... وهناك ، وجدت أمها رجلا سميناً أحمر الوجه أزرق العينين خفيف الشعر يرتدى بذلة بيضاء ورباط عنق محشور فى ياقة القميص حشراً ... كان الزائر جالسا فوق مقعد وقد مدد ساقيه على مقعد

آخر وهو يحرك قبعته أمام وجهه استجلاباً للهواء ... وكان وجهه يتفصد بالعرق .

عندما وصلت إليه باندا لم يكلف نفسه عناء النهوض ، بل راح يرميها بنظرات متفحصة ... ما أن وصلت إلى الصالون الذى جلس فيه حتى سألته فى جفاء :

« ماذا تريد ؟! »

« إن اسمى زيللى !! »

دق قلبها بعنف حتى ظنت أنه سوف ينفجر ... إن أسلوبه فى الحديث يشى بأنه يعرف كل شىء ، بل يشى بتهديد ساخر غير مستتر ... وبقدر ما أسعفها ذكاؤها فى تلك اللحظة قالت :

« وهل يعنى هذا شيئاً بالنسبة لى ؟! »

شملها الرجل بنظرة مستهينة ساخرة وهو يغمغم :

« أنه يعنى أننا أقارب ! »

سألته ببرود حاولت به أن تغطى خوفاً كان يغلى فى صدرها :

« وماذا إذا كنا كذلك ؟! »

هنا ، نهض زيللى من مقعده متقدماً نحوها :

« ألا ترين أن هذا يعنى شيئاً ؟! »

« ماذا تريد بالضبط ؟! »

زمجر الرجل بغتة :

« كانت أمك عمتى ؟! »

« أمي ؟! »

داعب ذقنها بطرف أصبعه مغمغماً :

« ماتا هارى يا باندا ! »

وترنحت باندا ، ها هو الجرح يغفرناه متدفقاً بالألم والخوف والرعب وماذا سوف يحدث وقد انكشف سرها ؟! ... ولابد أن وجهها قد شحب كثيراً فلقد ابتسم الرجل ابتسامة من أدرك أنه أصاب الهدف تماماً ، وعاد يقول :

« ألا يجب أن ترحبى بواحد من أقاربك ؟! »

أدركت باندا فى تلك اللحظة كم كانت تنوء بسرها هذا طوال السنوات الماضية ، أشارت إلى مقعد آخر وهى تقول :

« تفضل ! »

تركته وسارت إلى حيث راحت تعد له كأساً من شراب الأرز ، عادت بالكأس إليه وقد وضعت فيه مع الشراب بعضاً من قطع الثلج فتناوله منها وراح ينظر إليه كأنما هو يغازله ... جلست على مقعد مقابل وكان يقول :

« فى مثل تلك الأمور يصبح الوصول إلى الهدف من أقصر الطرق هو أسلم السبل ! »

« ما الذى تريده بالضبط ؟! »

« لكى نحسم كل شىء أحب أن أقول لك بوضوح أن « الكمبتاى » - جهاز المخابرات اليابانى - يعرف عنك كل شىء !! »

« كل شىء ؟! » .

« يعرفون على سبيل المثال أن أمك هى ماحريتا جروترود زيللى ، وأنها هى بعينها الجاسوسة الشهيرة ماتا هارى ، وأنها قد تجسست لحساب الألمان فى فرنسا أثناء الحرب الماضية ! »

توقف الرجل عن الحديث وكان يلهث ، رشف من شراب الأرز رشفة وكان قلبها يدق بعنف ورأسها تدور بينما كان زيللى يغازل كأسه ويرشف منه رشفات قليلة وكأنما هو يترك لها الفرصة كى تستوعب كل هذا الذى قاله ... ولكن : ماذا يريد ؟!

وكأنما كان يقرأ أفكارها قال :

« إنهم هم الذين أرسلونى إليك ! »

« وماذا يريدون منى ؟! »

« أن تعملى لحسابهم ! »

لم تفهم باندا ما الذى كان يعنيه بجملته ... حقيقة لم تفهم أو فلتقل أنها لم تدرك معنى الجملة إدراكاً كافياً ... ازداد اضطرابها وهى تهتف :

« ما الذى تعنيه بهذا ؟! » .

« أن تكونى عميلة لهم فى جهاز مخابراتهم ! » .

هكذا بوضوح ودون لف أو دوران وبقسوة بالغة ... ولكن ...

« **ولكنى لا أحب اليابانيين !** »

« **ولا أنا !!** »

« **ولن أعمل لحسابهم !** »

« **ولكنك مضطرة !** »

« **إنك تنسى شيئاً هاماً !** »

« **ما هو ؟!** »

« **إننى سليلة دماء مختلطة !** »

« **وما الذى يعنيه هذا ؟!** »

« **ألم تسمع عن المرسوم الذى أصدره الحاكم العسكرى ؟!** »

مد لها يده بكأسه الفارغ كمن يطلب كأساً آخر وهو يقول :

« **لا عليك ، أن الحاكم العسكرى رجل معتوه !** » .

نهضت كى تعد له كأساً آخر دون أن تقطع حبل الحوار ، قالت :

« **لكن المرسوم واضح تمام الوضوح !** »

« **ولسوف تكونين يا باندا أول من يخرق هذا المرسوم !** »

همت بالحديث فأردف وهو يجول بعينيه فى المكان كأنما يتفحصه :

« **هذا وعد !** » .

عادت إليه بالكأس فراح يغازله بالنظرات حيناً من الوقت ثم رشف منه رشفة قال بعدها :

« **سوف أعطيك – باذن خاص – مهلة لأربع وعشرين ساعة كى تفكرى فى الأمر !** » .

ألقى بما تبقى فى الكأس فى جوفه ثم أعاده إلى المائدة ناهضاً وهو يقول :

« ولو أنى أرى أن لا شىء ، يستحق التفكير ! »

● ● ●

نهضت باندا لنهوضه لكنها لم تتفوه بحرف . سار نحو الباب مغمغماً :

« **لقد تجسست أمك لحساب الألمان ، ولست أرى فى هذا مايضيرك أمام اليابانيين فهم حلفاؤهم ... ولكنى فقط أتساءل : ما الذى سيكون عليه موقفك لمجرد إعلان أنك ابنة ماتا هارى .. ليس فقط لأنك مخلطة ، ولكن بالنسبة للآخرين ؟!** »

كان قد وصل إلى الباب فالتفت نحوها . ثم وضع قبعته فوق رأسه ، وغادر البيت !

وكانت باندا الآن مثل ورقة فى مهب الريح عاتية ... لم تكن تدرى إلى أين تلجأ ، أو ماذا تفعل ... لم تكن قد فهمت ، حتى تلك اللحظة ، معنى ذلك الحديث الذى سمعته من « زيللى » !

ما هى إلا أسابيع قليلة حتى عادت الأضواء تتلألأ فى بيت باندا ماكلويد من جديد ... وعاد صالونها يضم صفوة المجتمع ... أدركت بعد انصراف « زيللى » أن الأمر ليس فى حاجة إلى تفكير بالفعل ، وأنه ليس أمامها - بأى معنى من المعانى - مجال للاختيار ... ببساطة . كان يكفى أن ترفض أو تعتذر أو تتعلل حتى تخسر كل شيء ، ويلقى بها فى أحد معسكرات الاعتقال ، ويصبح مصيرها بعد ذلك فى يد قدر عابث !

... ...

... ...

وعندما جلست بعد أيام مع مندوب « الكمبتاى » سألته عما يريدون منها بالتحديد ... كان الشاب الذى جلس إليها يذوب رقة وأدباً وخجلاً فى نفس الوقت ، قال فى هدوء :

« إننا لا نريد إيذاء أحد على الإطلاق ، خاصة إذا ما كان صديقاً لك .... كل ما فى الأمر أننا فى حالة حرب ، وبدلاً من الضرب العشوائى هنا أو هناك تأميناً لجيشنا ... فإن كل ما نبغيه منك إذا ما شككت فى أى شخص أو أردت حماية عزيز عليك يتصرف برعونة . أن تبلغينا أن هذا الشخص يستحق الانتباه... ولسوف نتحرى الأمر بدقة ... فلو ثبت عليه شيء ، فلن يحدث له أكثر من وضعه فى أحد معسكرات الاعتقال حتى تنتهى هذه الحرب اللعينة ! »

همت باندا بالسؤال لكنه أردف موضحاً :

« سيدتى ... لسنا وحدنا الذين نفعل هذا ، وأنت تعرفين أكثر من غيرك ، ما الذى كان يفعله الهولنديون بأبناء جلدتك ، حتى بدون حرب ! »

و ... و ...

ولم تكن باندا ماكلويد فى ذلك الوقت تعرف ، أن هذا التبسيط المخل ، ليس سوى شركاً ينصب لها كى تدفع بالكثيرين من الذين أحبتهم ورغبت فى حمايتهم إلى مصير غامض ورهيب ... ومرة أخرى ، هكذا قالت فيما بعد ، لم يكن أمامها سوى القبول والرضوخ ... إن نظرة واحدة تديرها فيما كان يجرى فى باتافيا فى تلك الأيام ، كانت كفيلة لبث الرعب فى قلبها !

فى تلك الأيام الغريبة ، كان الجوع يعصف بأهالى باتافيا من أبناء الأرض الأصليين ، وكلما احتدمت الحرب كلما شحت المؤن حتى أصبح من المتعذر على المواطن الأندونيسى أن يجد قوت يومه ... ويوماً بعد يوم كانت قبضة اليابانيين تشتد على كل شيء . وكانت باندا تسمع من القصص ما كان يبعث بالرعب إلى قلبها ، بالرغم من أنها كانت تعيش حياة ناعمة لا حرمان فيها ولا حاجة !!

عادت الأضواء إذن إلى الصالون الذى أصبح يضم عدداً لا بأس به من الجنرالات اليابانيون ورجال الصناعة وملاك المزارع وزوجاتهم وعدد لا بأس به من الدبلوماسيين ... ولقد وجد

الجميع فى صالون باندا ، رئة يتنفسون بها فى مجتمع تجثم على صدره قوات احتلال بالغة القسوة ، واقتصاد حرب يكاد أن يزهق الأنفاس .

غير أن الأحاديث والمناقشات فى الصالون الجديد ، لم تعد تتطرق – كما كان الحال فى الصالون الأول – إلى الفن والأدب ... بل أصبحت السياسة هى العنصر الغالب فى المناقشات ، خاصة إذا ما كان بعض الضيوف من موظفى وزارة الخارجية الألمانية الذين كانوا عادة ما يصلون إلى جاوة عن طريق الغواصات .

وبدأت الأسرار تتناثر أمام باندا وبين يديها .

يوماً بعد يوم كانت الثقة تزداد فيها . خاصة وأنها كانت عادة ما تعزف عن الحديث فى السياسة ، وتنغمس فى الحديث حول الفن والأدب مع نخبة من الأصدقاء الذين انضموا إلى صالونها وتلاقت مشاربهم مع مشاربها ..

من هذه النخبة الجديدة كان السيد « جالاتى » السويسرى المثقف البدين ، ورجل الأعمال الذى أصبح من أقرب الناس إليها ... كما كان هناك البروفسور « هايموس » عالم الآثار اليونانى الذى كانت كل اهتماماته محصورة فى الحفريات التى كان يقوم بها فى أنحاء الجزيرة بحثاً عن تاريخ المنطقة ، والذى كان يمتعها بالحديث عن اكتشافاته التى تمت ، أو التى يأمل فى الوصول إليها ... كما كان هناك القنصل الدانمركى « لندكويست » الذى اعترف لها ذات مساء وقد توطدت العلاقة بينهما أنه يستغل قنصليته فى إرسال معلومات عن الجيش اليابانى

إلى البريطانيين ... ثم صديقها الفنزويلى خفيف الظل المرح الدائم الضحك « هيرماتو وونُف » ... كما كان هناك قائد حركة المقاومة السرية الأندونيسية التى عرفت باسم « ياركنج » والذى اتخذ من صالونها ستاراً يتظاهر فيه بالولاء لليابانيين فى حين أن رجاله كانوا منتشرين فى المستنقعات بطول شواطىء جاوه .

وقبل كل هؤلاء ، كان هناك الكولونيل عبدالله ، قائد الحرس الوطنى الأندونيسى الذى أنشأه اليابانيون للحفاظ على الأمن الداخلى ... والذى بالرغم من موقفه هذا الموالى لليابانيين ، كان يحتل مكانه خاصة فى قلب باندا التى وقعت – مرة منذ وفاة زوجها السيد فان ديرين – فى غرامه وأحبته وذاقت فى حبه أحلى ما تذوقه امرأة !

كان الكولونيل عبدالله شاباً وسيماً فارع الطول جذاباً ، وكان قد اشتهر فى باتافيا بأنه يسحر الفتيات ... وبالرغم من أن باندا كانت تكبره باثنتى عشر سنة ، إلا أنه ، هو الآخر ، وقع فى حبها .

ولقد ترددت باندا طويلاً قبل أن تعلن هذا الحب ... فلقد كانت علاقتها مع زوجها الراحل ، لا تزال تنشر عطرها فيما حولها ، كانت علاقة مشوبة بالكثير من الود والاحترام ، ولقد وجدت فيه باندا تعويضاً عن الأب المجهول ! ... أما الآن ، وقد تخطت الأربعين من عمرها ، فلم تكن فى حاجة إلى أب ، بقدر ما كانت فى حاجة إلى العاطفة !

ولا أحد يدرى كم طال تردد باندا أمام عبدالله الذى كان يواظب

على حضور صالونها ، لكن المؤكد أن الحب أخيراً فرض نفسه وتفجر فى قلبها كالبركان ... وكان أكثر ما أسعدها فى عبدالله أنه كان « مسلماً » عفيفاً ، تدله هو الآخر فى حبها فأعطاها نفسه ، وكادت علاقتهما تصل إلى ذروة الكمال ، لولا علامة الاستفهام تلك التى ظلت معلقة فيما بينهما !!

كانت باندا كثيراً ما تتساءل :

كيف يتعاون مثل هذا الشاب القوى الثابت الوجدان مع اليابانيين لحفظ الأمن لهم فى بلاده ؟!

ولقد تجرأت ذات ليلة أخذ فيها الحب بمجامعها فسألته ... وجاءها جوابه بالغ الغموض ، بالغ الإقناع فى نفس الوقت :

« إنها مجرد وظيفة يا باندا ! ... مجرد وظيفة !! »

ومن ناحيتها ، فلقد حرصت باندا ، ووافقها عبدالله ، على أن تظل علاقتهما سراً لا يعرفه أحد سواهما ، وعلى ذلك ، فهى لم تذكر كلمة عنه للكومبتاى ، الذى كان مندوبهم عادة ما يزورها أو يرسل فى طلبها ، ثم يمطرها بالأسئلة !

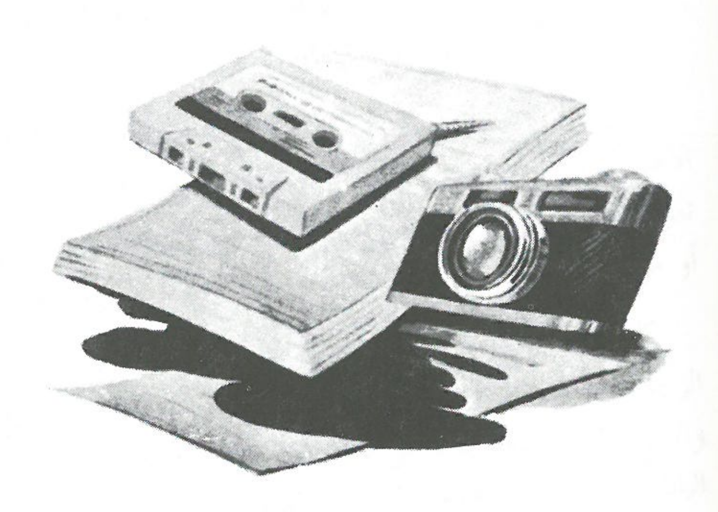
الغريب فى الأمر ، أنها لم تعد ترى قريبها « زيللى » هذا بعد ذلك . ومن ناحيتها لم تهتم بأن تسأل عن رجال الكومبتاى ، وبدا لها ، وكأنهم لا يعرفون عنه شيئاً !!

وكما حدث مع أمها من قبل ، وجدت باندا نفسها تسبح فى عطور باريس التى كانت تأتيها عن طريق الغواصات مع الأحذية

الإيطالية الفاخرة . وامتلأ بيتها بكل ما تصبو إليه نفسها ، وأصبحت فوق كل هذا ، محط أنظار الرجال ذوى المكانة الرفيعة فى المجتمع !

حتى كانت ليلة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ .

ليلة خطت فيها باندا ، دون إرادة منها ، الخطوات الأولى فى مستقبل سوف تقودها أيامه ، إلى الجحيم نفسه ... وكانت ليلة مروعة !!





من العسير أن نقول أن باندا ماكلويد قد خدعت بوعود الكومبتاى ... لكنه من المنطقى أن نقول أنها أرادت أن تصدق وعودهم ... خاصة ، وأن أكثر الذين تدلهوا فى حبها فى الفترة الأخيرة ، كان هو القنصل اليابانى فى الجزيرة ... السيد « ياكيماتو » !

ليس هذا فقط ، فلقد كانت غالبية الرجال الذين طلبت من الكومبتاى الاهتمام بأمرهم ، من ذوى المكانة الخاصة والسمعة الطيبة ... وكانت تعرف عنهم بعدهم تماماً عن لعبة السياسة ، ولم يخطر ببالها من بعيد أو من قريب ، أن تكون لهم علاقة ما ، أية علاقة ، بعالم التجسس !

كما كان من المنطقى أيضاً . وقد وجدت نفسها محاطة بكوكبة من الرجال الأوربيون والآسيويون ذوى المكانة والقدرات الخاصة . والذين كانوا يتسابقون ، كل بأسلوبه ، للفوز بقلبها ... أن تشعر أن اليابانيين لابد وأن يحترموا كلمتهم معها !

أكثر من كانت تخاف عليه هو الكولونيل عبدالله . ذلك الأندونيسى الذى فتنها حباً وشجاعة وغموضاً فى نفس الوقت ،

والذى وافقها فور مصارحتها له بحبها ، ومصارحته لها بحبه ... أن يظل غرامها سراً بينهما لا يعرفه حتى أقرب المقربين إليهما ... ذلك أنهما بالقطع كانا موقنين أن القنصل اليابانى المهذب ، يملك القدرة على التنكيل بأى مواطن أندونيسى مهما كانت مكانته ، وحتى ولو كان هو قائد الحرس الوطنى الموالى للسلطة اليابانية فى الجزيرة ... ذلك أن أبسط عقاب كان من الممكن أن ينزل بالكولونيل ، هو إصدار الأوامر إليه بالانتقال من جاوه إلى أية جزيرة أخرى نائية ، من آلاف الجزر التى تكون أندونيسياً !

وللحقيقة ... فلقد كان السيد ياكيماتو ، رغم قامته القصيرة ، أنيقاً إناقة نافذة التأثير ... كما أنه كان فى نفس الوقت وسيماً هادىء الصوت مهذب التصرفات ...

ولذلك ... فلقد دهشت باندا فى تلك الليلة المروعة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ ، عندما انصرف جميع الضيوف ، وبقى ياكيماتو وحده معها !

دهشت ... لأنها كانت المرة الأولى التى يفعل فيها سعادة القنصل هذا .

وخافت ... لأنها أدركت أن السيد ياكيماتو قد بقى خصيصاً كى يزف إليها نبأ لا تريد ، بالقطع ، أن تعرفه أو تسمعه .. أو غزلا كانت فى غنى عنه !

عندما طالت جلسة القنصل بعد انصراف الضيوف ، أمرت باندا الخدم بأن ينصرفوا ، فانصرفوا ... وراحت ، وقد طال صمت

الرجل ، تبحث عن موضوع تتجاذب به أطراف الحديث معه ... وكانت طبيعياً أن تتذكر بعض الذين أمّوا صالونها فى تلك الليلة ... فلقد كان من بينهم عدد لا بأس به من الدبلوماسيين الألمان الذين وصلوا حديثاً إلى جاوة فى إحدى الغواصات الألمانية ... ولقد تذكرت ، وهى جالسة مع ياكيماتو ، أحدهم ... وكان يتميز بالصلف والعجرفة ، فابتسمت قائلة :

« أن الألمان يشعرون دائماً أنهم فوق الآخرين ! »

وجاءها صوت القنصل خافتاً مؤدباً مهذباً :

« إن ما تقوليه صحيح تماماً يا سيدتى ! »

وبينما هى تبحث فى ذهنها عن شىء تقوله ، كان هو يردف زافراً :

« ومن العسير أن يجلس الانسان معهم دون الحديث عن تقسيم العالم ! »

كانت – على كل الأحوال – قد أصبحت مدربة بعض الشىء فغمغمت :

« لكنهم – أبداً – لا يصرحون بما فى نفوسهم ! »

« وهذا صحيح أيضاً ... ولقد سمعت هذا الرأى من السيد جالاتى شخصياً ! »

وتذكرت جالاتى !

تذكرت باندا أن صديقها السويسرى هذا قد اختفى من صالونها

منذ أسبوعين دون أن تعرف عنه شيئاً ، فهتفت وقد وجدت مادة للحديث :

« جالاتى ... إنى لم أره منذ أسبوعين ! »

علت وجه القنصل ابتسامة خفق لها قلب باندا فأردفت :

« وقد حاولت الاتصال به فى البيت وفى شركته الصناعية ، لكنى لم أعثر عليه ! »

ظلت الابتسامة معلقة على وجه القنصل فأدركت باندا أن فى الأمر شيئاً .. ألحت وقد اعتراها القلق :

« هل تعرف عنه شيئاً يا سيدى ؟! »

« لقد سمحنا له بالسفر على السفينة تانجيرانج ! »

هتفت باندا فى لوعة :

« ولكنكم أغرقتم تانجيرانج فى عرض المحيط ! »

ساد الصمت لثوانى كانت باندا فيها ترتجف لاهثة الأنفاس ، غمغم القنصل بعدها :

« وعلى كل الأحوال ، فقد كان لديه الوقت الكافى قبل السفر ، كى يعترف بمكان محطته اللاسلكية السرية التى كان يتصل من خلالها بالبريطانيين ! »

شحبت باندا شحوباً عظيماً وغامت عيناها وهى تحملق فى القنصل ياكيماتو ... كانت هى التى أبلغت عن جالاتى كنوع من

المراوغة . فلقد كانت موقنة أن صديقها السويسرى ذاك لا علاقة له بمثل هذه الأمور !

• • •

وقع الخبر على باندا ماكلويد وقوع الصاعقة ، هى لم تكن تخدع نفسها ولم تكن غافلة عما اقترفته ... فهى تعرف الآن ، والآن فقط ، أن كل هؤلاء الذين حذرت اليابانيين منهم قد لقوا حتفهم ... وكان من الصعب عليها أن تتصور ذلك ... من الصعب عليها أن ترسل أصدقائها إلى الموت بكلمة منها !

لاحظ السيد ياكيماتو شحوب وجهها فأدرك ما كانت تعانى منه ، تململ فى جلسته وتمتم معتذراً إن كان قد سبب لها بعض الألم ، كان حديثه مهذباً كالعادة ، لكنها أدركت أن حروف كلماته كانت كوخز السيوف اليابانية الشهيرة ... حاولت أن تسترد نفسها فاعتذرت بقولها أن حفلات الاستقبال أصبحت تصيبها بإرهاق شديد ... ابتسم متململاً فى مكانه وهو يقول :

« إذن ، فعل أن أتركك حتى تنالين قسطاً من الراحة ! »

أدركت على الفور أنها وقعت فى خطأ فادح ... إن حزنها على جالاتى يعنى أنها متعاطفة معه . وإذا كانوا قد اكتشفوا محطة الإرسال التى كان يتصل بواسطتها بالبريطانيين ، فهل يجب أن تحزن على جاسوس كان ينقل أخبارهم وأسرارهم إلى الأعداء ؟!

حاولت ملاطفة فابتسمت مجاملة :

« لا عليك سيدى القنصل ... أنت تعرف أنى أجد الراحة إلى جوارك ! »

وتأكيداً لما قالته ، نهضت والرعب يجتاحها احتياجاً ، كى تعد له كأساً من الساكى اليابانى الذى يفضله ... عادت إليه بالكأس وكان فى استقبالها وبين يديه صندوقاً متوسط الحجم غلف بالمخمل الأسود ... قدمت له كأسه فقدم لها الصندوق متمتماً :

« هذه هدية متواضعة أردت أن أقدمها لك على انفراد ! »

الآن أدركت لم بقى القنصل إلى ما بعد انصراف الضيوف ، كان يريد أن يدفع الثمن ، ولم يكن هذا ممكناً أمام الآخرين ... مدت يدها إلى الصندوق الفاخر وكانت تقول لنفسها : إن هذا بالتأكيد هو ثمن الخيانة ... ما أن فتحت الصندوق حتى شهقت إعجاباً ودهشة ... كان ثمة عقداً من الماس تتلألأ حباته تحت أضواء البهو المتناثرة ، هتفت غير مصدقة :

« إنه يساوى ثروة ! » .

« هذا صحيح ، لكنها لا تعادل ... ... »

وأمسك ياكيماتو عن الحديث ، ارتجفت أهدابه وهو يرميها بنظرة وله ... وكانت باندا ماكلويد فى تلك اللحظة تتساءل عن بقية جملته المبتورة ... هل هى ثروة لا تعادل حبه لها ، أم أنها ثروة لا تعادل خدماتها لهم ؟!

سرى صوته إليها من جديد :

« هل تسعدينى برؤيته وهو يزين جيدك ؟! »

سارت نحو المرآة وكانت تترنح بالفعل ، أحست بنفسها تسبح فى الفضاء وكأنها تسير فوق سطح سفينة تتلاعب بها الأمواج ، بذلت جهداً عظيماً كى تتمالك نفسها وتقف أمام المرآة وتضع العقد حول عنقها فإذا هى تنظر إلى تحفة فنية وثروة حقيقية تتلألأ فوق صدرها ... التفتت إليه وقالت :

« كيف أشكرك ؟! »

« بأن تجعلينى أظن أنك سعيدة بالهدية ! »

كان جوابه صارخاً فى وضوحه ، أحست لوهلة ، أنه ربما كان ضحية مثلما هى ضحية !!

« لقد سعدت بها حقاً ! »

غمغم السيد ياكيماتو موغلاً فى الوضوح أكثر :

« ونحن على استعداد لأن نقدم لك كل ما يسعدك ! »

قال هذا ، ثم راح يدور بعينيه فى المكان مسترسلاً :

« وعلى كل ... فإن لديك منزل جميل ، وقدر كاف من المال ... ونحن حريصون على أن نرسل لك كل ما تحتاجينه من مؤن ... فوق أننا لا ننسى أصدقاءنا أبداً !!! »

قال هذا وهو ينحنى احتراماً :

« والآن ... هل تأذنين لى بالانصراف ؟! »

• • •

لا تدرى باندا ماكلويد لم أحست فى كلمات السيد ياكيماتو

الأخيرة بتلميحات تحمل الكثير مما يريد قوله ولكنه لا يستطيع ... ظلت جامدة فى مكانها حتى غادر البيت ... وما أن اطمأنت إلى أنها أصبحت وحيدة حتى تركت لدموعها العنان ... لم يكن جالاتى وحده هو سبب حزنها وبكائها . كان هناك الكثيرون الذى اختفوا وكانت تظن أنهم غابوا لبضعة أسابيع أو بضعة أشهر فى مهام هنا أو هناك فى القارة الشاسعة أو فى واحدة من آلاف الجزر الأندونيسية المتناثرة فى المحيط ... ولابد لها الآن أن تواجه كل شيء بوضوح ، دون لف أو دوران ... لقد خانت أصدقاءها ، وكل الذين وضعوا ثقتهم فيها وائتمنوها على أسرارهم ... فهل تستحق من كانت مثلها أن تعيش !

فى بطء راحت تصعد الدرج الرخامى إلى الطابق العلوى ... دلفت إلى غرفة نومها وكانت يداها تعملان فى قفل العقد حتى خلعته ... تركته يسقط من يدها فوق الأرض ووطأته بقدمها وسارت إلى دولاب ملابسها ... فتحت دلفة معينة فيه وامتدت يدها كى تخرج زجاجة صغيرة كانت تحوى عددا لا بأس به من الحبوب المنومة ... فلقد كان رأيها – فى تلك الدقائق التى انقضت منذ خرج القنصل اليابانى ، وحتى وصلت إلى غرفتها – وقد استقر على أن تنتحر !!!

... ...

... ...

قالت باندا ماكلويد فيما بعد ، أنها عندما تناولت الأقراص المنومة ، كانت تريد الانتقام من نفسها ، فلقد رأت أنها لم تعد

قادرة ، بعد أن عرفت ما عرفت ، على العيش مع تلك المرأة التى **هوت إلى حضيض الخيانة من أجل حياة منعمة لا ينقصها شيء ... فى** الوقت الذى كان الشعب الذى تنتمى إليه ، والذى منه كان أبوها ، والذى تجرى دماؤه فى عروقها ... لا يكاد يجد قوت يومه !

• • •

بالرغم من أن عدد الأقراص التى تناولتها باندا فى تلك الليلة كان كافياً لأن يقتل ربع دستة من الرجال ، إلا أنها لم تمت ... بل ، لم يشعر أحد بأنها أقدمت على الانتحار ... كل ما حدث أنها ظلت نائمة لساعات لم تدر كم طالت بها ، وعندما فتحت عينيها ، وللوهلة الأولى ، أدركت أن محاولتها قد فشلت ، وأنها لم تمت بعد ... فقط ، ذلك الحريق الذى كان مشتعلاً فى حلقها ورغبتها الشديدة فى الماء ... نهضت من فراشها لكن ساقاها لم تقويا على حملها ... جذبت حبل الجرس المدلى إلى جوار الفراش ، فجاءتها وصيفتها مهرولة وكان القلق قد استبد بها لطول الساعات التى ظلت سيدتها نائمة فيها ... ولقد حاولت تلك السيدة الأندونيسية طيلة النهار أن توقظ سيدتها دون جدوى ... ولما كانت تعلم أنها أقامت بالأمس حفل استقبال ، فلقد ظنت أنها لم تأو إلى فراشها إلا فى الصباح !

كانت باندا شاحبة شحوباً عظيماً ، رفعت يدها فى بطء كى تسكت السيدة التى راحت تثرثر مبدية قلقلها ومعبرة عن خوفها على سيدتها ، لكن باندا طلبت كوباً من الماء !

رغم الضعف والوهن وعدم القدرة على مغادرة الفراش ، إلا أن عقل باندا كان يعمل بعنف ونشاط ... استرجعت كل ما حدث

وما قيل ، لكن فى ذهنها أسماء هؤلاء الذين وشت بهم وأرسلتهم إلى الموت بسذاجة ، تذكرت نظرات القنصل ياكيماتو فأصابها الاشمئزاز ... وقبل أن تغفو عيناها للمرة الثانية ، كانت قد اتخذت قراراً بالانتقام !

• • •

طوال الأيام التالية كانت باندا تعتذر عن استقبال أى من الذين أرادوا رؤيتها ، أعلنت وصيفتها أن سيدتها سقطت صريعة الانفلونزا ... ظلت ملازمة الفراش ليومين لم يكف فيها ذهنها عن العمل ... كانت أول حقيقة أدركتها أن أية محاولة أخرى للانتحار عبث ، ففوق أنها شىء حرمه الله ، ألا أنها أيضاً جبن وهروب من مواجهة الواقع الذى كان عليها الآن أن تواجهه ، وتصارعه ، وتنتصر عليه !

لحظة بعد أخرى كانت فكرة الانتقام تضرب بجذورها فى أعماق تفكيرها حتى استولت عليها تماماً ... استقرت الفكرة وأصبحت هى الهدف من حياتها ولو كلفتها حياتها نفسها ... تذكرت تلك الأقاويل التى وصلت إلى سمعها عن رجال حركة المقاومة الأندونيسية التى عرفت باسم « ياركنج » ، والتى تعرفت على زعيمها الشاب ذات يوم ثم اختفى واختفت معه أخباره !

بدا لها الطريق مسدوداً فهى لم تكن تعرف أحداً غير هؤلاء الذين يترددون على صالونها وعدد من الأصدقاء والصديقات لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً ... غير أن بصيص من الأمل لاح لها عندما

تذكرت حبيبها عبدالله ، ذلك الكولونيل الشاب فى الحرس الوطنى الأندونيسى ... ولكن : ماذا لو كان عبدالله مخلصاً بالفعل لليابانيين ؟!

وعلى كل ... فلقد كان عبدالله ، هو أول من سمحت له بزيارتها بعد اعتكافها الذى طال لأسبوع كامل ... منذ أن ألتقت به مع اللهفة التى أخذت بمجامعها راحت تسلك فى الحديث معه طرقاً ملتوية ... كانت كلما أحست أنها تقدمت نحو هدفها خطوة ، تراجعت بعدها خطوات ... يوماً بعد يوم كانت الأحاديث مع عبدالله تسير فى دائرة مفرغة ... تقترب من الهدف ثم تتراجع خوفاً ، ومن يدريها أن عبدالله لن يشى بها كما وشت هى بالعديد من الأصدقاء ... من يدريها ، لو كان لدى عبدالله الاستعداد ، أن يوليها ثقته خاصة وأنه – كمحترف – لابد قد لاحظ اختفاء هذا البعض من باتافيا ؟! ..

حتى كانت ليلة طال الحديث بينهما ، ففاجأها عبدالله ذات لحظة بقوله :

« **لقد مضى حوالى أسبوعين لم تلتق فيها بأحد ولم تستقبلى أحداً !** »

« **أنت تعرف أنى مريضة !** »

جاءها صوته يحمل الكثير من المعانى وهو يقول :

« **مهما كان مرضك ، عليك أن تعودى إلى الناس حتى لا تتناثر الأسئلة من حولك ؟!** »

قبل أن تفتح فمها بكلمة ، مال عليها وطبع على جبينها قبلة قائلا وكأنه يبثها رسالة غامضة :

« مهما كان المرض ، علينا ألا نيأس ! »

قال الكولونيل عبدالله هذا ، ثم انصرف !

• • •

وحتى ساعة متأخرة من الليل ، لم تذق باندا ماكلويد فى تلك الليلة للنوم طعماً ... كانت كلمات عبدالله تحمل الكثير من المعانى فهل كان يقصدها ؟! ... أعياها التفكير فتمتمت وهى تأوى إلى فراشها :

« على كل ... فأنا لا أملك سوى الاستجابة لما طلبه ! »

• • •

بعد أيام قليلة عاد صالونها الأدبى من جديد كى يضم النخبة الممتازة من الطبقة الحاكمة فى جاوه ... لم يلحظ أحداً من المدعوين بقايا ذلك الشحوب الذى استطاعت أن تخفيه بالأصباغ التى أظهرت جمالها فكأنها لوحة خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة ... كان الكولونيل واحداً من المدعوين بطبيعة الحال . كما كان هناك عدد لا بأس به من الدبلوماسيين والجنرالات ورجال الاقتصاد والصناعة والأدب والفن ... فى تلك الليلة ، أدركت باندا أن ثقة اليابانيين فيها قد بلغت مداها ... ولم يلحظ أحد من المدعوين ذلك التغيير الذى طرأ على باندا فجعلها تعزف عن مناقشة الأدب والفن ، وتنخرط فى المناقشات السياسية والعسكرية التى كانت تدور هنا وهناك ...

راحت تتساءل عما أصبح يدور فى أوروبا . عن الأحوال فى جنوب آسيا ... و ... وقبل أن ينتصف الليل ، أبدى الكولونيل عبدالله رغبته فى الانصراف ... بدا على باندا الضيق فلقد كان وجوده يخفف من وطأة ذلك الإحساس الذى كان ينتابها كلما انعقد صالونها ... كانت السهرة لاتزال فى بدايتها . وكان فى وجود عبدالله عزاء لها ... ولقد أدرك حبيبها ما اعتراها ، فهمس وهو ينحنى مقبلاً يدها فى رشاقة :

« إن موعدنا غدا بعد الغروب ، ولسوف يكون لنا حديثاً شيقاً !! »

فى تلك الليلة لم تنم باندا كما ينبغى ، كانت كلمات عبدالله الآن أكثر وضوحاً فما الذى كان يقصده ؟!

ومهما كان الأمر ، هكذا قالت وخيوط الفجر تصبغ الظلام فى الأفق ، فإن عليها أن تنتظر حتى غروب الشمس فى اليوم التالى !!

• • •

عندما أعلن الخادم نبأ قدوم الكولونيل عبدالله ، خفق قلبها بعنف ...وظل يخفق وهى تهبط الدرج إلى الطابق الأول ، حتى إذا ما التقت بحبيبها . كانت مع الشوق فى ذروة القلق ، لم تكن تريد أن تخسره ، وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تتراجع ... ما أن جلست إلى جواره حتى سألها :

« والآن ... ما الذى تريدينه بالضبط ؟! »

« أنت تعلم إنى لا أريد سواك » .

ابتسم ابتسامة من يعلم ماذا تخفى . ثم قال :

« أنت تعلمين أن أول ما سوف نفعله بعد الحرب ، هو إعلان زواجنا !»

خفق قلبها ، أرادت أن تقول له أنها تحبه ، أنه حبها الوحيد ، أن ... ... لكنه قاطعها فى حسم :

« والآن يا باندا ... ما الذى تريدينه بالضبط ! »

كمن يلقى بنفسه فى النار ، أو كمحاولة أخرى للانتحار ، قالت :

« أريد الانتقام من اليابانيين !! »



٤

رغم الحياة السهلة التى عاشتها باندا ماكلويد ، والتى أصبحت – حتى ذلك الوقت – فى أجزاء كثيرة منها مترفة . الا أنها لم تعرف طعم السعادة الحقيقية إلا فى النادر .

غير أن بعض الذين اهتموا بحياة تلك السيدة الفاتنة التى رماها قدرها وسط حقول ألغام تنفجر بالتنفس وليس باللمس فقط... يرون أن تلك الليلة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٤٣ ، كانت أسعد ليلة فى حياتها على الإطلاق !

ظنت باندا فى تلك الليلة أن الأقدار تعبد لها طريقاً وردياً نحو المستقبل... ذلك أنها عندما قالت للكولونيل عبدالله أنها تريد الانتقام من اليابانيين ، كانت تنتظر أى شىء فى الدنيا . إلا هذا الذى سمعته منه !

كانت تنتظر أن ينهرها حبيبها متلفتاً حوله وهو يطلب منها أن تكف عن هذه الأفكار المجنونة ، كما كانت تنتظر أن يأخذ حديثها بريبة وشك ، وانتظرت أن يحذرها ، أو أن يطلب منها التأنى ومعاودة

التفكير وتأمل الموقف ... كانت ، وكانت ، وكانت تنتظر أى شىء ألا أن يقول :

« هل تعلمين أننى عضو فى منظمة سرية لمقاومة الاحتلال اليابانى ؟! »

هتفت دون وعى :

« ياركنج ؟! »

« لا ... أنها منظمة أخرى بعد أن انكشفت ياركنج وقبض على أغلب قادتها ! »

« ولكنك ... ... »

ولم يعطها عبدالله فرصة لكى تكمل سؤالها ، قاطعها باسماً :

« ضابط من ضباط الحرس الوطنى الذى أسسه اليابانيون ، أليس هذا ما تريدين قوله ؟! »

ارتبكت باندا ، كان صراحة عبدالله قاتلة ، فهل ينصب لها حبيبها فخاً ؟!

ولابد أن ارتباكها قد لفت نظره فلقد مال عليها بعد لحظات وهو يقول :

« أليس هذا غطاء ممتازاً لنشاطى الحقيقى ؟! »

• • •

الآن كان عبدالله يضع حياته كلها بين يديها ، اجتاحتها السعادة وحاولت النطق دون جدوى ... وهى فى النهاية لم تكن تريد أن تقول

شيئاً ، وإنما كانت تريد أن تسمع إلى عبدالله الذى تحدث وأفاض فى الحديث .

قال الكولونيل الأندونيسى الشاب أن المنظمة التى ينتمى إليها هدفها ضرب الخطوط الخلفية لليابانيين وإقلاقهم حتى يحين موعد وصول جيوش الحلفاء ... قال أن رجاله متناثرون فى كل مكان ، فى المدن والقرى والمستنقعات والأحراش والغابات والجزر ، لكن هناك شىء هام لابد من الانتباه إليه جيداً ... وهو أن الكمبتاى – المخابرات اليابانية – سوف تعلم أن آجلاً أو عاجلاً بعضاً من أخبارهم ... ولذلك ، فهم الآن ، والآن بالتحديد ، فى حاجة إلى مساعدتها !

هتفت باندا :

« أنا ؟! »

« نعم أنت يا باندا »

« وكيف أستطيع المساعدة ؟! »

« بأن تعرفى لنا موعد أى هجوم يستعدون له علينا ! »

« أهذا كل ما فى الأمر ؟! »

« بالقطع لا ... فهناك الكثير مما يمكن أن تقدميه لنا ، ولسوف نطلبه يوم نحتاج إليك ! »

• • •

عندما انصرف عبدالله كانت باندا ماكلويد دون شك أسعد امرأة فى العالم ... لقد ألتقى حبها مع هدفها فهل يمكن أن تطلب

المزيد ؟! ... [ها هو شبح الموت يبتعد عنها وها هى الفرصة تتاح لها كى تنتقم من هؤلاء الذين خدعوها ودفعوها إلى خيانة أصدقائها ... ثم ، ها هو القدر يجعل من حبيبها وسيلتها وأداتها لهذا الانتقام ، بل يجعل منها واحدة من أعوانه فى مهمته المقدسة ... مرة أخرى ، هل يمكن أن تطلب من الدنيا المزيد ؟!

غير أنها وسط أمواج السعادة التى راحت تتمرغ فيها خطر لها خاطر :

ماذا لو أنها ظلت مخدوعة وأبلغت السلطات اليابانية عن عبدالله كما أبلغت عن الآخرين ؟!

ثم ... ماذا لو كان عبدالله يسايرها حتى يتسنى له الإبلاغ عنها ؟!

خاطران عكرا صفو السعادة قليلاً . لكنها سرعان ما أبعدتهما عن ذهنها ، كى تتفرغ طوال الليل لأحلامها الوردية !!

• • •

انقضى عام ١٩٤٣ ، ومرت من بعده شهور ، وانتصف عام ١٩٤٤ ، وبدا وكأن هذه الحرب بلا نهاية !

كان العام المنصرم مليئاً بالأحداث ، ثم أصبحت لقاءاتها مع عبدالله ، مرة أخرى منذ محاولتها الانتحار ، سرية ... فهو لم يعد يأتى إلى البيت قبل أن يرحل الخدم ، ويأوى من بقى منهم فى البيت إلى فراشه ... كانت الضربات تتلاحق فى أوروبا على جيوش هتلر التى كانت تتهاوى ، وأصبحت عصبية الجنرالات فى جاوه مثار الحديث بين العامة ... أما فى صالونها الصغير فلقد كان الجنرالات يجدون

متنفساً لهمومهم التى راحت تتكاثر ، وتدفعهم ، مع ازدياد عصبيتهم إلى الثرثرة والبوح بالكثير من الأسرار التى كانت تنقلها إلى حبيبها بانتظام !

ثمة شىء آخر أضيف إلى باندا فى هذا العام ١٩٤٤ ، فلقد أصبحت أكثر تدريباً وحنكة ... عرفت أساليب وتعلمت أساليب واكتشفت أساليب وابتكرت أساليب جديدة ، وكانت تمد عبدالله بكل ما تسمعه أو تراه أو يقع تحت يدها ... اكتشفت أن حبيبها لم يكن شجاعاً فقط ، بل كان بارعاً فى تنظيم حركة المقاومة مع حركة الحرس الوطنى - الشرعى !! - حتى أصبحا وكأنهما تنظيماً واحداً ... اكتشفت باندا ماكلويد أن له أعوان ينقلون الأخبار - إذا ما افتقروا إلى اللاسلكى - إلى غواصات بريطانية كانت تلتقى فى جوف الليل مع قوارب لصيادين فقراء يخرجون إلى عرض المحيط بقواربهم بحثاً عن الرزق ... وكان هؤلاء الصيادين ، وفى مواعيد محددة وضعت حسب جداول بالغة التعقيد ، يلتقون ، أثناء رحلات صيدهم الليلية ، بتلك الغواصات البريطانية ، كى يسلمونهم ما يحملونه من وثائق أو معلومات !

أوصى عبدالله باندا بأن تستمر فى علاقتها مع الكومبتاى ، وأن تمدهم ببعض الأخبار الصحيحة أحياناً مما جعل ثقة اليابانيين فيها تتزايد يوماً بعد يوم . لكنها أيضاً دفعتهم إلى التخلى عن بعض الحرص المطلوب فى البوح بأسرار غاية فى الأهمية ... عرفت باندا من اليابانيين - بدقة تبعث على الدهشة - المواعيد التى تحددها القيادة اليابانية للهجوم على معاقل الثوار فى القرى النائية والجزر البعيدة ...

لكنهم ، أى اليابانيون ، كانوا دائماً ما يصلون متأخرين يوماً أو يومين ، كى يجدوا القرى خالية إلا من أهلها الفقراء ، والجزر ليس فيها سوى فلاحين وصيادين وسكان كانوا يتجمعون حول الجنود كالذباب متوسلين طالبين بعضاً من الخبز أو الطعام !

راحت الأيام تمضى ، والأسابيع ، والشهور ... والحرب تحتدم يوماً بعد يوم ، والمقاومة تزداد حدة ، وجنون اليابانيين يدفعهم إلى التصرف بعصبية أحياناً ، وأحياناً أخرى بحمق كان يكشف ما يعتمل فى نفوسهم من خوف ..

حتى كانت ليلة !

• • •

كانت باندا فى تلك الليلة على موعد مع عبدالله ... وكانت أسابيع طويلة قد انقضت منذ أن رأته لآخر مرة ... لكنها – على أى الأحوال – لم تذهب سدى ، فلقد انقضت فى عمل دائب ومشروع بالغ الخطر استطاعت أن تنجزه وحدها ... ذلك أن باندا علمت ذات ليلة من أحد الجنرالات بوجود وثيقة بالغة الخطر تحدد أماكن تجمعات الجيش اليابانى فى أندونيسيا . والأسلحة التى يمتلكونها ، وأعدادها ، وتوزيعها ، وأماكن إخفاءها ، وأنواعها ، ومخازن الذخيرة ، وما تحويه ، والاحتياطى ، وكميته ... ثم ، الخطط التى وضعت لمواجهة أى غزو بريطانى لتلك الجزر ، والخطط البديلة لذلك الغزو ... باختصار ، كانت الوثيقة التى سعت باندا إلى الحصول عليها لا تقدر بمال ، كانت ضربة عظيمة فى ذلك العالم

المخيف . كما كانت الوثيقة تتكون من أربع وعشرين صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة . وفوق هذا كله . كان ثمة عدد لا بأس به من الخرائط العسكرية التى توضح أماكن القوات اليابانية !

وحتى الآن ، لابد لنا من الاعتراف ، أن أحداً لم يستطع معرفة الوسيلة التى حصلت بها باندا على تلك الوثيقة البالغة الخطر ... قد تكون هناك تخمينات أو حسابات أو ما إلى ذلك ، لكنه يبدو ، أن الحقيقة الخالصة لهذه العملية الباهرة ، قد ذهبت مع باندا إلى حيث ذهبت باندا ...

ويبدو أن مبعث الحيرة فى الأمر كله . أن حياة باندا فى باتافيا كانت تسير على نفس الوتيرة ... يجتمع فى صالونها قادة الجيش والطيران وأدميرالات قطع الأسطول الراسية فى موانىء أندونيسيا والدبلوماسيين والفنانين والأدباء ... هى تقضى نصف نهارها نائمة استعداداً للسهرة فى الليل ، وتستعد فى النصف الثانى لزوارها الكثيرين الذين كانوا يجدون فى بيتها راحة ودفئاً تعوضهم عما كانوا يعانون منه طيلة يومهم .

غير أن الأيام كانت تمضى دون أن يظهر عبدالله فى صالونها ، ودون أن يأتى للقائها فى المساء وبعد انصراف الضيوف والخدم ... وكلما مرت الأيام ، كلما ازداد قلق باندا على عبدالله ...فماذالو أن المعلومات التى سربتها إلى الثوار كانت مغلوطة ... ماذا لو أن اليابانيين كانوا قد اكتشفوا أمرها وسربوا إليها تلك المعلومات حتى يوقعوا

بالرجال الذين كانوا يضحون بحيواتهم من أجل حرية وطنهم ... ماذا لو أن خطأ وقع هنا أو هناك واستطاع اليابانيون أن يشنوا على الرجال هجوماً صاعقاً كى يبيدوهم ، ماذا ... ماذا لو أصيب عبدالله أو اعتقل أو اكتشف أمره ...

ظلت باندا ممزقة الإحساس ، حتى كان صباح ...

فى هذا الصباح ، جاءتها رسالة وصلت إليها بطريقة بالغة التعقيد ، تزف إليها خبر موعد سوف يزورها فيه عبدالله فى تلك الليلة !

• • •

فى الأيام الأخيرة ، كان عبدالله يزورها بعد انصراف الضيوف والخدم ... كان يدخل القصر من باب جانبى احتفظ بمفتاحه منذ شهور ... وما أن يطمئن تماماً إلى خلو المكان ، حتى يتسلل إلى البيت ، وزيادة فى الحرص ، كان عليها ألا تغادر غرفة نومها مهما حدث ومهما سمعت من أصوات ، كما أنه لم يكن يستعمل فى زياراته تلك مصابيح تضىء له الطريق ... وفى الظلام ، كان عبدالله يعرف طريقه جيداً إلى غرفة النوم ، حيث تقبع باندا فى الفراش متظاهرة بالنوم ، ولا تضىء سوى مصباحاً صغيراً تظاهرت بالتعود على النوم وهو مضاء طوال الليل ...

وهى ، فى تلك الليلة ، وعندما سمعت دقاً خافتاً على باب الغرفة ، هوى قلبها بين ضلوعها ... فى لهفة نهضت كى تفتح الباب ، ما إن

رأته أمامها ، حتى هوى قلبها بين ضلوعها ... ما ، أن طالعها وجهه فى الضوء الخافت حتى ألقت بنفسها بين ذراعيه .. وعندما استقر بهما المقام فوق مقعدين وثيرين تتوسطهما مائدة مستديرة يقبع المصباح الصغير فوقها ، حتى سألته :

« **هل كل شىء على ما يرام ؟!** »

ابتسم عبدالله وقد أدرك أن باندا أصبحت ذات هدف نبيل :

« نحن مدينون بسلامتنا ، وربما بأرواحنا ، لك يا باندا ! »

أدركت أن هجوم اليابانيون على الثوار قد فشل فى المرة الأخيرة أيضاً فتنفست الصعداء وقفزت من مكانها وقد اطمأنت إلى حيث أحد الأدراج وأخرجت منه تلك الوثيقة الخطيرة التى استطاعت الحصول عليها ... عادت إليه بالأوراق فسألها :

« **ما هذا ؟!** »

« **مفاجأة !!** »

وكانت مفاجأة بالفعل !

مفاجأة ألجمت لسان عبدالله حتى مطلع النهار ... فلقد كان ما بين يديه كنز بكل ما تحمل الكلمة من معنى ... كنز عكف على دراسته صفحة صفحة ... استغرق عبدالله فى القراءة وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ظلت باندا فى انتظار أن ينتبه إليها حبيبها الذى غاب عنها أسابيع دون جدوى ، مرت بيدها فوق شعره متسائلة :

« **ألا تستطيع قراءة الوثيقة فى وقت آخر ؟!** »

ابتسم عبدالله معتذراً وقد أدرك ما تعنيه ، قال :

« ليس هناك وقت كى ننسخ الوثيقة فنحن فى أشد الحاجة إليها ، ثم أنها من الأهمية بحيث يجب إرسالها إلى « بورنيو » اليوم ، ومن هناك سوف ينقلها قارب من قوارب الصيد إلى عرض البحر ! »

أطلت من عينيها نظرة عتاب فأردف :

« إن موعد لقاء الغواصة البريطانية بعد منتصف ليلة الغد بدقائق ! »

« إذن فلسوف أعد لك فنجاناً من الشاى القوى ! »

كان من بقى من الخدم فى البيت يغطون فى النوم عندما هبطت باندا إلى المطبخ كى تعد لحبيبها فنجاناً من الشاى القوى الذى يستعين به على مقاومة النوم ... وحتى مطلع النهار كان الكولونيل عبدالله قد ألم بكل ما فى الوثيقة والخرائط المرفقة ... طواها بعناية ودسها فى صدره وكان لابد له من الرحيل فلقد بدأ ضوء النهار يتسلل من خلف الستائر المسدلة رغم حرارة الجو ، كان لابد له من الانصراف حتى لا يشعر به ولا يراه أحد وهو يتسلل من البيت ... ضمها إلى صدره فى حنان وهو يهمس :

« كيف أشكرك يا باندا ! »

« متى أراك ثانية ؟! »

طافت بملامح عبدالله سحابات من حزن دفين :

« إن الأمور تزداد تأزماً كما تعلمين ، وقد ازدادت عصبية اليابانيين كثيراً وأصبحوا يشكون فى كل الناس بلا استثناء ... وقد لا أستطيع أن أراك قبل أسابيع ، وربما شهور ! »

« عبدالله ... إنى أموت فى كل ليلة ألف مرة قلقاً عليك ! »

«سوف تصلك رسائلى كلما تيسر هذا ، ولكن ... دعى عنك القلق واستمرى فى العمل على أن تكونى أكثر حرصاً فى الأيام القادمة ... إن النصر يقترب يا باندا ! »

قال هذا ، ثم انفلت من بين ذراعيها وانصرف دون أن يلتفت وراءه !

• • •

مر عام ١٩٤٤ كى تضيف باندا إلى انتصاراتها انتصارات أخرى ، ولكى تضيف الأيام إلى باندا جرأة أكبر ، وثقته أكثر ، وخبرة أعظم ... وثبات دفعها إلى المشاركة الفعلية فى مقاومة اليابانيين ...

وجاء عام ١٩٤٥ يحمل نذر العاصفة التى كان مقدراً لها أن تهب على أندونيسيا ... وعندما هبط الجنود البريطانيون إلى الجزر الأندونيسية . جاء نزولهم فى أضعف ثلاث نقاط فى تحصينات اليابانيين واستحكاماتهم التى ظلوا سنوات يشيدونها ... ولقد أظهر هذا الهجوم الساحق الذى شنه البريطانيون أنهم كانوا على علم وثيق

بكل مواطن الضعف فى تشكيلات الجيش اليابانى ... وكان القليلون ، والقليلون جداً ، هم الذين يعرفون أن الفضل فى هذا النصر . يرجع أصلاً إلى باندا ماكلويد !

... ...

... ...

كانت المعارك ، بالرغم من هذا طاحنة ... فى الأحراش والغابات ، على سواحل الجزر الصخرية وفى القرى وشوارع المدن ... وكان عبدالله قد استطاع أن يضع تنظيماً للحرس الوطنى مع رجال المقاومة ، جعل منهما قوة ضاربة ومؤثرة تماماً ... وما أن حلت اللحظة المناسبة . حتى راحوا يكيلون الضربات إلى مؤخرة الجيش اليابانى الذى راح يتشتت هنا وهناك !

كانت الأنباء تصل إلى باندا يوماً بيوم ، كانت تصلها عن طريق رجال عبدالله فى باتافيا أحياناً ، وعن طريق من تبقى من اليابانيين فى باتافيا أحياناً أخرى ... اجتاحتها السعادة اجتياحاً ، ها هى رغبتها فى الانتقام تتحقق وعلى أكمل وجه ، وها هو تكفيرها عن ذنوبها التى ارتكبتها فى حق أصدقاء وثقوا فيها يضيف إليها راحة نفسية عميقة ... لكنها فى نفس الوقت ، كانت تتمزق قلقا على حبيبها الذى اختفت أنباؤه تماماً لشهور طالت أكثر مما ينبغى ... حتى إذا كان صباح حار ورطب ... جاءتها وصيفتها كى تزف إليها نبأ وجود الكولونيل فى بهو البيت !!

• • •

قفزت باندا من فراشها كالمحمومة وهى تسأل :

« أهو هنا فى البيت ؟! »

« نعم يا سيدتى ! »

« ولماذا لم يصعد ... لماذا يظل فى البهو ! »

طافت بملامح السيدة الأندونيسية سحابة من حزن غريب وهى تقول :

« لقد طلبت منه ذلك ، أخبرته أن هذا سوف يسعدك ، لكنه رفض ! »

ابتسمت باندا وهى تبدل ملابسها بسرعة ... هذا هو حبيبها بعينه . المسلم الذى يحافظ على احترام الإنسان رغم أنه فى حكم الزوج وهو يعلم ذلك . اندفعت تغادر الغرفة وتخطف درجات السلم إلى حيث كان عبدالله هناك ، فى منتطف البهو يقف شامخاً ، تطل من عينيه نظرات حيرى ... جمدت باندا وهى تحملق فيه وقد تسارعت ضربات قلبها ، واجتاحت صدرها أعاصير من الحب والألم معاً !

كان عبدالله يقف أمامها وقد بتر ذراعه الأيسر ، وعلق ذراعه الأيمن إلى عنقه وقد اختفى خلف الضمادات ... بدالها حبيبها وكأن العمر تقدم به عشرات السنين ... كان شاحباً ، ضعيفاً ، واهناً ، غائر العينين ، جاف الشفتين ، كابى النظرات ... حاولت باندا أن تتحدث فلم تستطع ، وكان هو الذى تحدث أولاً ، قال :

« ألا زلت تريديننى ؟! »

هتفت فى لوعة واستنكار :

« عبدالله ! »

« وأنا على هذه الصورة ؟! »

انفجر الدمع منهمراً من عينيها كالشلال . تقدمت منه فى حرص من يخاف على قارورة هشة من الكسر ، انداح صوتها وهى تتقدم منه :

« الآن وقد خرج اليابانيون من أندونيسيا ... لن أتركك أبداً ... أبداً ! »

« هل أنت واثقة ؟! »

« أكثر من أى وقت مضى ! »

لمعت فى عينيه نظرات أمل اجتذبتها إلى صدره فارتمت فوقه وهى تقول :

« كم أحبك ! »

لم يكن عبدالله يستطيع الآن أن يضمها إليه كما كان يفعل فى الماضى ... افتقدت ذراعيه عندما جاءها صوته وهو يقول :

« ولكن هناك حقيقة لابد لك أن تعلميها جيداً يا عزيزتى ! »

رفعت إليه رأسها وقلبها يرتجف :

« ما هى ؟! »

« إن الحرب لم تنته بعد ! »

جحظت عيناها محملقة فيه وهى تهتف :

« لكن اليابانيين رحلوا ! »

« ولسوف يعود الهولنديون فى القريب ! »

أدركت باندا ما كان يجول فى ذهن صاحبها الذى أردف :

« إننا لم نقاوم اليابانيين كى نمهد الطريق لعودة الهولنديين ! »

وصمتت باندا ...

كان كلام عبدالله حقيقياً ... فهو القدر إذن ، قدرها ، قدرهما معاً .. عاد عبدالله إلى الحديث :

« لسوف يكون الكفاح هذه المرة أكثر ضراوة يا باندا ! »

« أعرف !! »

قالت هذا وذكريات ما قبل الحرب تنبثق من الماضى كنافورة من عذاب .

« ولسوف يحمّلنا هذا المزيد من الأعباء ! »

أدركت أن وراء حديثه ما وراءه ، فسألته :

« كيف ؟! »

« بعد أسابيع ، أو ربما بعد شهور ... سوف يصبح عليك أن تعلنى كراهيتك لنا ! »

هتفت غير مصدقة :

« ما هذا الذى تقول ، هل نسيت أنى أندونسية أولاً ! »

سار بها إلى مقعد ، وأومأ لها أن تجلس فجلست ، وجلس هو على مقعد مجاور ... وعندما بدأ الحديث ، بدا وكأنه ينتقى الكلمات . ويتحسس الحروف والمعانى .. قال :

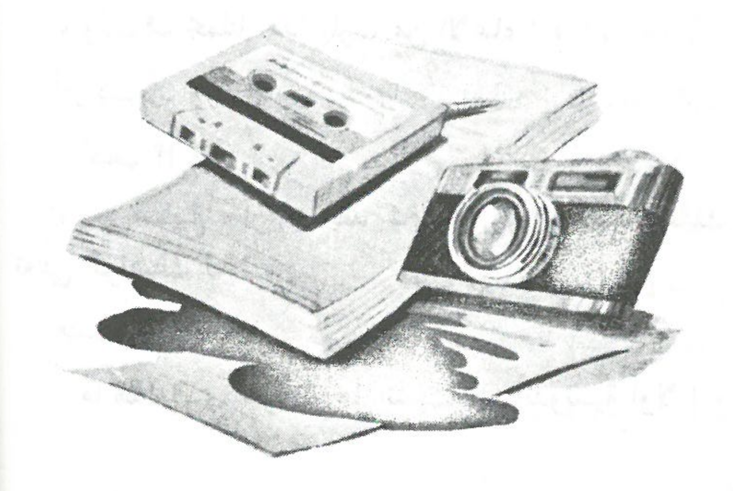
« عندما يأتى الهولنديون ، وعندما تبدأ معركة التحرير ، فلسوف نكون فى حاجة إلى معلومات عن المستعمرين ... ولن تستطيعين هذا ، إلا بوقوفك ، علانية ، فى المعسكر المعادى لنا ! »

وفهمت باندا ...

ها هو التاريخ الشديد القرب يعيد نفسه ...

فهمت أن قدرها قد حتم عليها أن تستمر فى لعب نفس الدور ، وأن عليها فقط ، أن تغير ملابس التمثيل بما يتلاءم مع دورها الجديد ...

وكانت تعلم الآن ، أنها ، فى واقع الأمر ، مؤهلة لذلك !



٥

لا يستطيع المرء هنا إلا يتوقف متسائلاً فى دهشة عن مصير هذه السيدة التى رسم لها القدر طريقاً لا فرار منه ولا فكاك ... لا يستطيع إلا أن يتوقف متأملاً أحداث هذه التراجيديا التى أبت إلا أن تحرمها من الحب يوم ظنت أنها أصبحت قاب قوسين أو أدنى من سعادة طالما تمنتها ...

يبدو الأمر غريباً كل الغرابة ، بل – استغفر الله العظيم – يبدو قاسياً قسوة تبعث بالقشعريرة إلى الجسد ... إن قدر باندا لم يكتف ببتر ذراع حبيبها المناضل الثورى ، بل وضعهما معاً فى موقف من الصعب الاختيار فيه ،وضعهمافى موقف كان عليهما أن يستمرا كل فى طريقة ... وبالرغم من إصابة الكولونيل عبدالله ، فإن الثوار أمثاله لا يوقفهم عن المسيرة ذراع مبتور ... وإذا كان الأمر كذلك ، فهل كانت باندا تستطيع أن ترفض عرضه الخاص بالتجسس على المستعمرين الهولنديين لحساب المقاومة الأندونيسية

بالقطع لا ...

إن أحداً – بداية – لا يستطيع أن يزعم أن باندا تجسست لحساب الكمبتاى اليابانى من أجل المال أو الجنس ... كان معها من المال ما يكفيها ، بل ويزيد عن حاجتها ، ورغم جمالها الباهر ، إلا أنها أغلقت قلبها منذ وفاة زوجها وانغمست فى دراسة الفنون والآداب ... ورغم هذا فقد فعلت ، غاصت فى المستنقع تحت ضغط الظروف ، وربما تحت ضغط الخوف والتهديد بتاريخ أمها ، أو الرهبة من إلقائها فى أحد معسكرات الاعتقال اليابانية .

والآن ... وقد اكتسبت خلال عامين أو ثلاثة خبرة لا بأس بها ، لم تكن تستطيع أن تتراجع أمام نداء الوطن الذى ولدت فيه وتربت بين ربوعه ، لم تكن تستطيع أن تخذل عبدالله فهو لم يطلب منها أكثر من أن تلعب نفس الدور ، نفس الدور من أجل هدف أسمى ... ذلك أنها بالرغم من أمها الهولندية الشهيرة ، إلا أنها كانت تعتبر نفسها أندونيسية لحماً ودماً ... وعلى كل ، فلقد اتخذت مع عبدالله قراراً بالإختفاء عن المجتمع لمدة أسبوع كامل لا تستقبل فيه أحداً ، كان اليابانيون قد غادروا الجزر الأندونيسية مدحورين ، وكان الهولنديون ، بعد الغزو البريطانى للجزر ، قد بدأوا يحتلون أماكنهم القديمة ، كما كان الوطنيون الأندونيسيون يستعلون لمعركة كانوا قد أدركوا من قبل أن تبدأ ، أنها سوف تكون مريرة .

وانقضى أسبوع ، وعاد صالون باندا يفتح أبوابه للمستعمرين الجدد ... وخلال هذا الأسبوع ، كانت باندا وعبدالله قد تحولا ، فى الصحف البريطانية بالتحديد إلى بطلين نادرين ... فلقد أبت الصحافة الغربية ، والأوروبية بوجه خاص ، إلا أن تكشف عن الدور الذى

لعبته باندا ضد اليابانيين . وهكذا تدفق الصحفيون من كل أنحاء العالم على بيتها يسألون ويستفسرون ويصورون ويسجلون ... وعُرفت باندا فى الأيام القليلة التالية ، كواحدة من أبطال المقاومة ضد الاحتلال اليابانى ... وتوافد المسئولون الهولنديون على صالونها يخطبون ودها ويبغون صداقتها ، وكان أعظم ما أعجبهم فيها ، هو ذلك الاشمئزاز الذى تظاهرت به نحوالأندونيسيين أنفسهم ، تماماً كما اتفقت مع عبدالله ... وهكذا ، ما أن انقضت أسابيع قليلة ، حتى كانت الطبقة الأرستقراطية الهولندية فى باتافيا تخطب ود باندا ، ويسعى أفرادها بكل الوسائل ، كى يحصل الواحد منهم على دعوة لحضور الصالون .

ولم تكن باندا تعرف بطبيعة الحال ، أن الأمور على سطح الكرة الأرضية قد تغيرت كثيراً ، وأن حرباً ضروس قد وضعت أوزارها ، كى تنشب حرب جديدة بين معسكرين عملاقين ، هما المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى ... وأن الصراع بين هذين المعسكرين بدأ محموماً من اللحظات الأولى لوقف إطلاق النار وانتهاء الحرب ...

وكان من بين الذين جاءوا إلى صالون باندا ماكلويد ، رجل يدعى « بلاتير » ... كان بلاتير هذا موظفاً عادياً فى مكتب الحاكم العام الهولندى ... ولم يكن من هذا النوع الذى يثير الارتياح لدى الآخرين ، بل العكس ... فلقد أحست باندا ، منذ الليلة الأولى التى دخل فيها بيتها ، إنه رجل غامض ... وكثيراً ما ضبطته يحدجها بعينين غريبتين نفاذتين ... وكان أمراً طبيعياً أن تفضى باندا إلى عبدالله بأمر هذا الضيف الغريب ، فما كان من الكولونيل

الأندونيسى إلا أن بادر على الفور – عن طريق رجاله – فى البحث عن حقيقة بلاتير ... من هو ؟ ... ماذا يفعل ؟ ... ثم ، ماذا يريد ؟!

ومن مصادرها الخاصة عرفت باندا بدورها أن بلاتير يعمل لحساب الهولنديين ، وأنه يمدهم بأخبار المقاومة الأندونيسية التى كانت تشتد يوماً بعد يوم ، لكن الغريب فى الأمر ، أنها اكتشفت فى نفس الوقت أن تلك المعلومات التى يمد بها بلاتير مكتب الحاكم الهولندى العام عن المقاومة الأندونيسية ، كانت فى الغالب معلومات مضللة !!

فمن يكون هذا الرجل ؟!

ظل السؤال بلا جواب حتى جاءها عبدالله بالنبأ الحقيقى ، ذلك أن عبدالله اكتشف عن طريق رجاله أن بلاتير يعمل لحساب الثورة الصينية بقيادة ماوتسى تونج !!!

• • •

حتى كانت ليلة ...

انصرف فيها المدعوون جميعاً ، وطلبت باندا من بلاتير أن ينتظر ... فانتظر !

بعد أن انصرف الجميع ، واجه عبدالله بلاتير قائلاً :

« استمع إلىّ جيداً يا سيد بلاتير .. إننا نعلم يقيناً أنك تعمل

ضد الهولنديين بالرغم من وظيفتك هذه فى مكتب الحاكم العام ، وبالرغم من تظاهرك بالولاء للهولنديين »

فى برود شديد ، قال بلاتير :

« ثم ماذا ؟! »

« إذا كنت مؤمناً حقاً بقضيتنا ، فعليك أن تساعدنا ، ولسوف تنال أجراً عن مساعداتك ! »

قال بلاتير :

« أنت تظن أنى لا أعلم شيئاً عن صديقتك ؟! »

واجهه عبدالله بنظرة قاسية وهو يقول :

« فلتذهب إذن إلى الجحيم ! »

فى نغمة تهديد سأله بلاتير :

« أهذا كل ما فى الأمر ؟! »

« إن كنت تريد التعاون معنا ، فلسوف تحصل على ثمن تعاونك هذا ! »

ولابد أنه كان قد اتضح لبلاتير أن الطريق أمامه مسدوداً ، ذلك أن لهجته تغيرت فجأة وهو يقول :

« ما الذى تريده منى إذن ؟! »

« كل ما تستطيع الحصول عليه من أسرار عسكرية خاصة بهجوم الهولنديون علينا ! »

وهكذا ، وجدت باندا ماكلويد نفسها وسط أتون معركة لم تعمل لها حساباً ، كانت رقعة الصراع تتسع ، وعناصرها جديدة تدخل ، وأصبحت الجاسوسية ... هى محور حياتها ، فلقد كانت المقاومة الأندونيسية لقوات الاحتلال الهولندى تشتد يوماً بعد يوم ، وأعلنت الولايات المتحدة الأندونيسية ... وبدأ الهولنديون حركة تطهير فتحولت الغابات والأحراش والجزر إلى جحيم ... وكان بلاتير حريصاً كل الحرص ، على إمداد عبدالله ، عن طريق باندا ، بكل ما يقع تحت يده من معلومات فى مكتب الحاكم الهولندى فى مقابل مادى كانت تدفعه له باندا أولاً بأول ، كما كانت هى الأخرى ، تمد خطيبها بكم هائل من المعلومات التى كانت تستقيها من أصدقائها من الطبقة الحاكمة ... وكلما اشتد أوار المعركة ، كلما ازداد قلق باندا ... ذلك أن عبدالله كان قد أعلن موقفه صراحة ، ولم يعد وجوده فى باتافيا أمراً مقبولاً ، وانقضت الأسابيع والشهور ، كانت ترسل له كل ما يقع تحت يدها وكل ما يمدها به بلاتير من معلومات ، ولكن ... لم يكن هناك خبراً واحداً عنه !!

• • •

كان عام ١٩٤٨ يزحف نحو نهايته ، وكان قلق باندا قد وصل إلى ذروته ، فلم يكن لديها أى خبر عن عبدالله لعدة أشهر ، وكانت الأنباء تترى عن عنف الصراع بين الوطنيين والمستعمرين ...

حتى كان صباح ...

جاءها الخادم يعلن عن وجود كولونيل أمريكى يطلب لقاءها !

هتفت باندا وقد خفق قلبها هلعاً :

« كولونيل أمريكى ؟! »

« نعم يا سيدتى ، هكذا قال السيد المنتظر فى البهو ! »

« ما الذى تعنيه بالله عليك ؟! »

« إنه يرتدى ملابس مدنية ! »

بعد دقائق كانت باندا تجلس أمام رجل فارع الطول أحمر الوجه صلب الملامح متسائلة عن سبب زيارته الغير متوقعة ... قال الكولونيل المجهول الذى لم يقدم لها نفسه بالاسم :

« أن لدى أخباراً غير سارة يا سيدتى ! »

هتفت :

« عبدالله »

« لقد سقط فى المعركة ولك أن تفخرى به ! »

مادت الأرض تحت قدمى باندا ، ترنحت فى جلستها فهب إليها الرجل مساعداً وهو يقول :

« ليس لك أن تحزنى على موته يا سيدتى ، لقد حارب من أجل مبادىء سامية ! »

جاء صوتها من بعيد وكأنها تحدث شبحاً :

« لكنه ذهب ! »

« وعليك أن تكملى الرسالة !!! »

« رسالة ؟! »

هكذا جاءها الأمر دون رحمة أو انتظار – حتى – لاستيعاب الكارثة التى منيت بها ، والأمل الذى تبدد ، والحب الذى انقضى ، والحبيب الذى استشهد ... راحت تحملق فيه غير مصدقة ، لم تدرك فى البداية مغزى حديث الرجل ، وإن كان المعنى ، بمرور الثوانى ، راح يتسلل إلى عقلها ثانية بعد أخرى ... ساد الصمت لثوان قال الكولونيل الأمريكى بعدها :

« إن أمامك هدف لابد من تحقيقه ! »

« هدف ؟! »

« إننا فى حاجة إليك ! »

صاحت باندا وهى ممزقة الصوت :

« هل تريد منى أن أؤيد الحكم الهولندى ؟! »

« سيدتى ... ... »

قاطعته ناهضة :

« ليس من حقك أن تطلب منى الاشتراك فى مثل هذا العار ! »

نهض واقفاً وقد تحولت نغمة صوته وهو يقول :

« هل تعرفين شخصاً اسمه زيللى ؟! »

سقطت باندا جالسة على مقعدها وهى تحدج الرجل بنظرات تائهة ، مادت بها الأرض مرة أخرى ، إنهم يورثونها بعضهم لبعض ، إن زيللى هذا هو الذى قادها إلى التعاون مع اليابانيين ، إنه هو هو قريب أمها الوقح النظرات والكلمات معاً ، إنه هو الذى فتح

لها الباب نحو هذا الجحيم الذى تعيش فيه منذ وطأت قدماه أرض بيتها لأول مرة .

كانت باندا ترتجف ، كانت تريد أن تصيح ، أن تصرخ ، أن تسب وتلعن ... فها هو رجل غريب يطلب منها الاستمرار فيما لم ترد الاستمرار فيه ... لكنه فى حقيقة الأمر لا يطلب ، أنه يأمر وما ذكره لزيللى بالذات ، إلا لكى ينبهها إلى أنهاكانت تتعاون مع اليابانيين ... أنه ... أنه يهددها بماض لايد لها فيه ... يهددها فى نفس اللحظة التى زف إليها خبر فقدان الصديق والحبيب والسند ، وهى لم تعد تملك سلاحاً بعد ، وعندما وجدت صوتها أخيراً سألته :

« هل تعرف زيللى هذا يا سيدى ؟!! »

أدرك الرجل أن الفرصة قد أتيحت له من جديد فعاد إلى الجلوس قائلاً :

« إن السيد زيللى يعتقد أنك سيدة قوية ، وأنك ستتغلبين على الموقف مهما كانت صعوبته ! »

تاهت نظراتها كما تاهت أفكارها فى خضم هائل من الأسئلة ، وعاد صوت الرجل يأتيها وكأنه ينبعث من بعد آلاف الأميال :

« إنه يرى أن ابنة ماتا هارى جديرة بأمها ! »

ها هو الشبح يطل عليها من جديد ... ها هى ذكرى أمها تعود مرة أخرى كى تفرض عليها ما لا تريد ... أدركت باندا ماكلويد أن لا سبيل إلى المقاومة ، لقد حاولت فى البداية ولم تستطع ، غازلها الأمل يوم ألتقت بعبدالله وظنت أن زمن السعادة يقترب ... لكن

عبدالله سقط ومات ، ذهب وتركها وحيدة فى عالم غامض ومثير ... تركها تواجه دنيا غير الدنيا ، وناساً غير الذين ألفت التعامل معهم ، وقوانين لعالم ملىء بالألغاز والأسرار يحفه الخطر من كل جانب ... ولم يكن أمامها سوى أن تسأل فى استسلام :

« ماذا تريد منى ؟! »

« ألا تيأسى ، ولا تتوقفى ... أن تستمرى ؟! »

« كيف ؟! »

هكذا سألته فقال بخبث :

« بأن تقفى فى الجانب الصحيح !! »

بدا لها العرض بذيئاً ومقززاً ، كانت جملة الرجل تحمل من شحنات التهديد ما لا قبل لها به ... لقد وقفت فى الجانب الصحيح يوم ساعدت الحلفاء على غزو أندونيسيا ، وكانت تقف فى الجانب الصحيح يوم وقفت إلى جوار الوطنيين ضد الهولنديين الذين استعمروا أندونيسيا ... إذن فلقد كانت كلماته تعنى تلك الأيام التى دفعها فيها زيللى دفعاً إلى هذا الطريق ، كان السلاح الذى يسهره ذلك الكولونيل الأمريكى الفارع الطول ذا فوهتين ، فوهة من الممكن أن ينطلق منهاتاريخ أمها ، وفوهة ستصيبها فى مقتل لو كشف الستار عن تعاملها مع اليابانيين .

ضحكت باندا ماكلويد ضحكة قصيرة تحمل من المرارة والسخريه ما لم يخف على أذنى الرجل الجالس أمامها يدخن ، وقد وضع ساقا

فوق ساق ، وراح يرمقها بعينين نفاذتين ... وما لبث الكولونيل الغامض أن سألها :

« هل أكون متطفلا لو سألتك عن سبب ضحكتك هذه ! »

« أبداً سيدى الكولونيل ... فقط ، لقد تذكرت أن كل جانب هو الصحيح بالنسبة لمن يقفون فيه !! »

كأنه لم يسمعها ، أو كأنها لم تقل شيئا ، قال الرجل وكأن الأمر مفروغ منه :

« سوف ندربك بعناية ، ونلقنك أصول اللعبة ! »

إذن ، فسواء وافقت أو لم توافق ، فلقد أتخذ القرار وانتهى الأمر !

مرة أخرى أدركت باندا أن لا مفر ... وعلى كل الأحوال ، لم يعد هناك ما تأمل فيه أو ما يستحق أن تحافظ عليه ... فلقد مات عبد الله !

مضت لحظات صمت قبل أن تقول :

« فليكن ما يكون ! »

« حسن ... ولسوف نعطيك من الآن اسم **« زهرة الشمس !! »**

• • •

لا يملك الإنسان ، مهما كان انتباهه ، إلا أن يقف ها هنا ، وعند تلك النقطة بالذات من حياة باندا ماكلويد ، وقد استبدت به الحيرة والألم معاً ... فما الذى كانت تستطيعه هذه السيدة فى مثل هذا الموقف ؟!

ومهما قلبنا الأمر ، وأمعنا فيه الفكر ، فلسوف نصل إلى طريق مسدود .... وإذا بقوانين العلم تنهار أمام واقع تصرخ كل مكوناته بان للقواعد استثناءات عديدة ... ذلك أن باندا ماكلويد ، ابنة ماتاهارى ، لم تكن تملك إلا أن توافق ... ولم يكن المال هو السبب ، كما لم يكن هناك جنس على الإطلاق ، لامن بعيد ولا من قريب ، وحتى المبدأ لم يكن دافعا من دوافعها ... إن المتتبع لحياة هذه السيدة التعسة ، سوف يهتف فزعا عندما تأتى لحظة لا تجد فيها القدرة على الاستمرار ، كانت قد تعبت ، وكان جزاء رفضها هو « الموت » !!

فهل كانت باندا ، فى كل ما فعلت بعد ذلك ... تؤجل — فقط — لحظة موتها ... حتى إذا جاءت لحظة الانهيار ، راحت تستعجل تلك اللحظة المشئومة ؟!

• • •

مضت بعد ذلك اللقاء شهور ثلاث لا يعرف أحد عنها شيئاً ... ذلك أن هناك من الأسرار ما لا يمكن البوح به فى كل أجهزة المخابرات فى العالم مهما كانت درجة الحرية فى الحصول على المعلومات بعد مدد معينة ... ثلاث أشهر ساقطة تماما من تاريخ باندا ، فلا أحد يعرف أين كانت ولا كيف دُربت ، ولا على أى شىء تدربت ...؟!.... فقط كل ما عرف عنها ، انها بعد ثلاثة شهور ظهرت فى الصين الشعبية !!!

• • •

نعم ...

ظهرت فى الصين وهى ترتدى زى ممرضة فى هيئة الإغاثة الدولية ... ففى تلك السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، كانت تتشكل من جديد بقوى جديدة وملامح جديدة ... وإذا كان ماوتسى تونج قد قاد ثورة شيوعية فى الصين ، فإنه كان حليفا قوياً ومحترماً فى حربه ضد اليابانيين الذين احتلوا أرض بلاده ... كما كانت هناك الثورة فى فيتنام ، والقلاقل فى كوريا وأصدقاء الأمس يواجهون بعضهم البعض بأقسى أسلحة الدمار ، وشبح الحرب يخيم على الدنيا من جديد ...

فى شنغهاى ، ظهرت باندا بذلك الزى الإنسانى ... لكنها ما لبثت أن خلعته كى تعمل ساقية فى البار الدولى بشنغهاى ... وهناك ، أمدتها تجربتها مع ما تلقته من تدريبات ، على اكتشاف سر هائل ، وهو أن هذا البار الشهير ، لم يكن سوى مقر قيادة المخابرات السوفيتية — كى . جى . بى — فى تلك المنطقة التى كانت لا تزال مشتعلة فى العالم ...

فى هذا البار وجدت باندا نفسها وسط عشرات العملاء الذين يتلقون المعلومات من بورما وكوريا وأندونيسيا وسيام والهند الصينية والفلبين ... ومن هذا المكان أرسلت باندا إلى رؤسائها الجدد بمعلومات وفيرة عن تحركات الشيوعيون فى أرجاء آسيا ، كانت معلومات باندا غزيرة كما كانت كلها صحيحة ... ولكن ودون

تعليمات ، اختفت ابنة ماتاهارى من شنغهاى كى تظهر فى مدينة « شنج كنج » التى كان ماوتسى تونج قد اتخذها فى تلك الأيام مقرا لقيادته ... لم تظهر فى « شنج كنج » كممرضة فى هيئة الإغاثة الدولية ولا كساقية فى بار ... بل ظهرت كأندونيسية متعصبة لمبدأ « آسيا للآسيويين » ... بدت للجميع فى هذه المدينة فتاة تتفجر بالحياة والحماس والأمل فى أن يرفرف العلم الأحمر فوق ربوع اسيا كلها ... ظهرت فى المدينة التى كانت تشغى بالمئات من رجال الأمن تحت اسم « وهلمينا فان ديرين » والتى كانت زوجة لمبشر هولندى من « هانكاو » ... ولم يكن صعبا عليها ، بعد فترة وجيزة من وصولها إلى « شنج كنج » أن تتعرف إلى سيدة تدعى « مانج تسى » ، وكانت وظيفتها هى تعليم الزعيم الصينى دروساً فى اللغات ، وأصبحت واحدة من أقرب صديقاتها إلى نفسها ، وفى تلك المدينة ، استعملت باندا الإرسال اللاسلكى ، فى بث المعلومات إلى الأمريكيين فى طوكيو باليابان ... كانت فى تلك الأيام تبدو شجاعة إلى حد يفوق الوصف ، لكنها ، فى حقيقة الأمر ، بدت وكأنها تتعجل لحظة موتها !!

أرسلت إلى الأمريكيين تقارير وافية عن الحركات الشيوعية السرية فى بورما ، وسيام ، والهند الصينية ... كما بعثت بمعلومات لا تقدر بمال عن مساعدة ماوتسى تونج لقوات فيتنام الشمالية ... كما أرسلت أول خبر عن الوقت المناسبة للتدخل الشيوعى فى كوريا .

هكذا اندفعت باندا فى الطريق الوعر لا تبالى بالمخاطر ، وكانت تنتقل من مكان إلى مكان وتبث رسائلها كى تفاجىء الآذان المصغية فى اليابان من المخابرات الأمريكية بمكان وجودها ... وفى حقيقة الأمر ، إن الذين كانوا يعرفون حقيقة باندا ماكلويد كانوا قلة من الرؤوس الكبيرة ... أما باقى الرجال فلم يكونوا يعرفون عنها سوى ذلك الاسم الكودى الذى أطلقوه عليها ، وهو « زهرة الشمس » !

• • •

فى عام ١٩٥٠ اختفت زهرة الشمس مرة أخرى دون أن يعلم أحد عن مكانها شىء ، ولقد أثار هذا الاختفاء قلق الرجال عليها ، فكلفوا عدداً من جواسيسهم فى الصين ، بالبحث عنها دون جدوى ... لم تعد زهرة الشمس تظهر فى « شنج كنج » رغم قربها الشديد فى تلك المدينة ، من ماوتسى تونج وحاشيته ... كما لم تظهر زهرة الشمس فى شنغهاى ... فإلى أين ذهبت إذن ؟!

ثم .... فجأة ، ظهرت زهرة الشمس فى مدينة « مالينج سونج » الكورية ، ومن هناك أرسلت تقريراً وافياً عن الهجوم الشيوعى فى كوريا ... وما هى إلا أسابيع ، حتى نشبت الحرب بالفعل !

• • •

مرة أخرى ران الصمت على باندا ماكلويد ، أو زهرة الشمس ...

لكنه صمت استمر شهوراً ستة لا يعرف أحد عنها شيئا ... حتى

إذا كان يوم ٢٤ مايو عام ١٩٥١ ، ظهر فى هونج كونج رجل رث الهيئة مهلهل الثياب زائغ العينين ... وبالرغم من مظهره الرث هذا ، فلقد اتجه فى صبيحة اليوم التالى لوصوله إلى شنغهاى ، إلى مكتب المخابرات البريطانية فى المدينة .

اعترض الحارس ، وكان برتبة عريف ، طريق الرجل :

« إلى أين تظن أنك ذاهب أيها السيد ؟! »

هكذا سأله العريف فأجابه الرجل المنهك القوى :

« أريد أن أرى واحداً من المسئولين هنا ! »

كانت هيئة الرجل لا تبدو مشجعة ، بل أن القذارة البادية عليه كانت تثير التقزز ... كاد العريف أن يطرد الرجل ، لولا نظراته تلك المتوسلة ، وصوته الواهن وهو يقول :

« اسمع أيها العريف ، لم أعد قادراً على السير خطوة واحدة ، وعلى ذلك ، فأنا لا أستطيع الاتصال بمخابراتى الخاصة ، ولابد لى من مقابلة ضابط مسئول ! »

بعد دقائق طالت قليلا ، أدخل الرجل إلى مكتب جلس فيه وحده لدقائق وصلت إلى الثلاثين ... بعدها فُتح الباب ودخل شاب انجليزى قدم نفسه :

« أنا النقيب هورس ، ما الذى أستطيع ان أقدمه لك ؟ »

« وأنا جوزيف ميخاليسكى ، الضابط السابق فى جيش روسيا البيضاء ! »

فى برود قال الضابط الانجليزى الشاب :

« ثم ؟! »

« لقد كنت أعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية فى كوريا الشمالية ! »

« ثم ؟! »

هكذا جاء صوت الضابط البريطانى مغموساً فى برود قاتل !

ولم يجد السيد ميخاليسكى سوى أن يهتف :

« لقد قدت كتيبة الإعدام التى أعدمت باندا ماكلويد فوق ثلوج كوريا ! »

هب الضابط الشاب واقفا عند سماعه لاسم باندا هاتفا :

« ماذا قلت ؟! »

« باندا ماكلويد ، ألم تسمع بهذا الاسم ؟! »

« وهل ... ... »

« نعم يا سيدى ، لقد أعدمت ، فهل لك أن تأمر لى بفنجان من الشاى وسيجارة ؟! »

٦

كان النقيب هورس ، واحداً من الضباط البريطانيين الذين اشتركوا مع المخابرات الأمريكية فى البحث عن سر اختفاء... « زهرة الشمس »... وهكذا لعبت المصادفة دورها فى الكشف عن وفاة هذه السيدة التعسة ... ولقد كان للخبر الذى قاله السيد ميخاليسكى وقع القنبلة على ضابط المخابرات البريطانى الشاب ، الذى أسرع بطلب فنجان من الشاى وبعض الشطائر للضابط الروسى سىء الحظ ، والذى كان يعمل لحساب المخابرات المركزية الأمريكية ... كان هورس يرتجف انفعالا وهو يستمع إلى تفاصيل ما حدث مع باندا فى ساعاتها الأخيرة .

وبطبيعة الحال ، ما أن مضى يومان بعد وصول ميخاليسكى هذا ، حتى وفد إلى هونج كونج أحد رجال الـ سى . آى . ايه . كى يلتقى بميخاليسكى ويسمع منه تفاصيل ما حدث !

ولقد قص ميخاليسكى على الضابط الأمريكى — وكان قد استعاد قواه وحظى بالراحة المفتقدة — قصة بالغة الغرابة ، قصة إعدام باندا ماكلويد ...

ولكن ... بالرغم من معرفة الجميع لتفاصيل النهاية . فإن ملف باندا لم يغلق ... ذلك أن جزءاً هاماً من القصة ظل غامضاً . وهو الجزء الخاص الذى يحكى قصة انتقال باندا من الصين إلى كوريا ... وكان السؤال المطروح هو : ما الذى دفعها إلى هذا الانتقال ؟! ... ولماذا تصرفت من تلقاء نفسها ودون انتظار للأوامر ؟!...

ولثلاث سنوات كاملة ظل الملف مفتوحاً ... ولقد بذلت جهوداً مضنية لمعرفة ما حدث دون جدوى ... وبدا الأمر غريباً غرابة تبعث على الشك فى مثل هذا العالم . حتى جاء وقت أدرك فيه البعض : أن الملف سوف يظل مفتوحاً إلى الأبد ... ذلك أن تلك الفترة التى سبقت الانتصار النهائى للثورة الشيوعية فى الصين . وسبقت اندلاع الحرب الكورية . كانت من أحلك الفترات فى تاريخ المنطقة وأكثرها ازدحاماً بالأحداث التى كانت متشابكة وكثيرة إلى درجة تبعث على البلبلة لا الحيرة فقط ...

حتى كان يوم من أيام خريف عام ١٩٥٣ ، عندما وصلت إلى كوريا الجنوبية ، سفينة مليئة بالجنود الأمريكيين الجرحى والمرضى والذين كانوا فى معسكرات الاعتقال ...

وكان طبيعياً أن يكون بين الجنود عدد من المدنيين ... غير أن واحداً من هؤلاء المدنيين ، كان يعانى من مرض السل فى مراحله

الأخيرة ... لم يكن أحداً يعرف هذا الرجل ولا اسمه ، كان ضعيفاً ضعفاً أكد للأطباء فى المستشفى الذى نقل إليه ، أن أيامه معدودة ... وهو ، هو نفسه كان يشعر بقرب النهاية ... ذلك أنه ، منذ اللحظات الأولى ، كان له طلب بدا للجميع غريباً ... فلقد أراد أن يزوره أحد ضباط المخابرات المركزية الأمريكية ... ولم يكن الطلب مستحيلا ، وبطبيعة الحال ، وفيما يختص بالأسرى بالذات ، كانت هناك مجموعة عمل من رجال الـ « سى . آى . إيه » ، وكانوا جاهزين للاستماع كما كانوا أيضا مستعدين بعشرات الأسئلة ... ولقد أسرع أحدهم إلى الرجل الغامض ، الذى بدا له شاحبا شحوبا عظيما ... كان يعرف – قبل أن يدخل الغرفة — أن أيام الرجل معدودة ، ذلك أن المرض كان قد تضافر مع الضعف والوهن وقلة التغذية ، للقضاء عليه ... لكن الغريب فى الأمر أنه لم يجد لهذا الرجل اسماً ، لا فى السفينة التى أقلته إلى كوريا الجنوبية ، ولا فى المستشفى ... كما أنه لم يجد من يعرفه من الأسرى من الجنود !

اقترب الضابط الأمريكى من المريض وهو يهمس :

« اسمى الكابتن هندريكس ، وأنا من المخابرات المركزية الأمريكية ! »

أومأ المريض إلى أحد المقاعد وهو يقول :

« أرجوك أن تجلس إلى جوارى وأن تستمع إلى جيداً دون مقاطعة ! »

جذب الكابتن هندريكس مقعداً وجلس إلى جوار الرجل :

« ما الذى أستطيع أن أصنعه من أجلك ؟! »

« إننى على وشك الموت . وأنا أعرف أنه لا سبيل إلى إنقاذ حياتى بعد كل الذى عانيته ! »

« ثق يا سيدى أننا سوف نفعل قصارى جهدنا لشفائك !»...

« أن اسمى الآن بيرس ! »

هتف الضابط الأمريكى :

« أوه ... مستر بيرس . لقد أعيتنا الحيل فى البحث عنك ! »

« أعرف ذلك ! »

« ثق أننا سوف نعمل المستحيل من أجلك ! »

« أرجوك أن تسمع ، فهناك ما أريد الافضاء به إليك قبل الرحيل ! »

« إنى مصغ إليك ! » .

راح الآن بيرس يتحدث فى لهفة وسرعة وكأنه يخشى أن يداهمه الموت قبل أن يكمل حديثه ... قال أنه أرسل إلى الصين الشعبية فى عام ١٩٤٩ ... وفى شنغهاى ، استطاع أن ينضم إلى إحدى بعثات الصليب الأحمر التى كان مقرراً لها أن تسافر إلى « شنج كنج » مقر قيادة ماوتسى تونج ...

« ... ... وهناك ألتقيت بسيدة جميلة تحمل اسم « ولهلمينا فان ديرين » ، وقالت أنها كانت زوجة لمبشر هولندى فى هانكاو »

مال الكابتن هندريكس على السيد بيرس قائلا فى لهفة وعدم تصديق :

« هل لك أن تعيد على الاسم مرة أخرى ؟! »

« ولهلمينا فان ديرين ، وكانت تتمتع بعلاقات حميمة مع العديد من أعوان الزعيم الصينى ماوتسى تونج ! »

توقف بيرس عن الحديث ريثما يلتقط أنفاسه المتقطعة ، وراح الكابتن هندريكس يكدح زناد فكره ، فلقد كان اسم « فان ديرن » بالذات يبدو له مألوفا بعض الشىء ... وعندما عاد بيرس إلى الحديث ، أعطاه كل اهتمامه ... قال :

« ظننت إذا كانت هذه السيدة زوجة لمبشر هولندى حقاً ، فلابد أنها من الممكن أن تتعاون معنا ، غير أننى ما أن بدأت الحديث معها حتى صارحتنى بأن اسمها الحقيقى هو « باندا ماكلويد » ، وأنها تعمل لحساب الأمريكيين الذين جندوها فى باتافيا عاصمة جاوه ! »

عاد بيرس إلى الصمت من جديد !

أما الكابتن هندريكس فلقد كان ينتفض انفعالا لما يسمع ، ذلك أنه كان على علم بقصة « زهرة الشمس » وذلك الجزء الغامض الذى حيرهم منذ ثلاث سنوات ... ولقد لزم بيرس الصمت لثوان عاد بعدها إلى الحديث :

« كان من أصعب الأمور أن أصدقها ، فكيف تعترف لى بحقيقة

أمرها بمثل هذه البساطة ، ولابد أنها عميل مزدوج يريد الإيقاع بى ... لكنها فى نهاية الحديث طلبت منى أن أغادر شنج كنج لأن أسمى وضع فى القائمة السوداء !! »

كان الأمر ، ليس بالنسبة للسيد بيرس وحده ، ولكن بالنسبة لكل القوانين والأعراف ، خرقا جريئاً لكل قواعد الأمن ... غير أن السيد بيرس ، عرف فى نفس الليلة من مصادره الخاصة ، أن اسمه كان قد وضع بالفعل فى القائمة السوداء ، وعلى هذا فلقد قرر أن يهرب إلى كوريا ، إلى مالينج سونج بالذات !.

ثم أضاف السيد بيرس :

« وكان لابد لى أن أصف الطريق لباندا بعد أن عرفت حقيقتها قبل رحيلى ، ورغم خطورة اتصالى بها إلا أنها غامرت ، ووصفت لها الطريق من « شنج كنج » حتى « مالينج سونج » ، وطلبت منها ألا تتردد فى الهرب إذا ما أحست بأى خطر ! »

بدأت قوى السيد بيرس فى الأنهيار فجأة ، فراح يلهث وراء الكلمات :

« وصلت إلى مالينج سونج بعد ثلاثة أسابيع ، وهناك علمت أن واحدة من أقرب صديقات باندا ومن المقربين لماوتسى تونج قد تم اعتقالها ، فأدركت أن باندا لابد سوف تلحق بى أن استطاعت الإفلات ! »

وبالفعل وصلت باندا إلى مالينج سونج قبل اشتعال الحرب

الكورية بأيام قليلة ، وكانت تحمل معها كل الوثائق الخاصة بإشعال هذه الحرب من الجانب الشيوعى ... وكان جهاز اللاسلكى الخاص بباندا قد أصابه العطب ، كما كان بيرس نفسه فى حاجة إلى جهاز يرسل تقاريره ، فعكف على إصلاح جهازها ، ومن خلاله أرسل كلاهما تقريره إلى طوكيو .

« ... ثم ... ثم افترقنا بعد ذلك ! واعتقلتُ بعدها ببضعة أسابيع !. ولم أعرف شيئاً عنها بعد ذلك ! »

• • •

لفظ السيد بيرس أنفاسه الأخيرة بعد بضع ساعات ، لكن الكابتن هندريكس كان يعلم أنه أصبح يملك كنزاً من المعلومات عن « زهرة الشمس » أو باندا ماكلويد ، ومالبث أن طار إلى طوكيو ... كان هذا بعد واحد وعشرين يوما بالتمام والكمال ... وما أن أفضى الكابتن هندريكس بما لديه لرؤسائه ... حتى اجتمع اثنان من المخابرات الأمريكية فى إحدى غرف المبنى الذى كان هذا الجهاز يحتله فى طوكيو ، كان الاجتماع بينهما سريا للغاية ، وكان — أيضا — يبعث على الشجن ... فبعد أن وضعت قصة بيرس فى مكانها ، اكتملت كل المعلومات الخاصة بباندا ماكلويد ... أو « زهرة الشمس » ابنة ماتاهارى !

• • •

والآن ... ما الذى قاله السيد ميخاليسكى قبل ثلاث سنوات من حديث السيد بيرس ؟!

قال أنه كان يخدم فى إحدى الفرق الشيوعية بعد أن انضم إليها كشيوعى متطوع من الاتحاد السوفيتى ... ثم علم ذات ليلة ، أنهم قبضوا على سيدة تعمل لحساب الأمريكيين فى مالينج سونج ، وأن ثمة محاكمة سريعة قد تمت ، بعد العثور على جهاز اللاسلكى الذى كانت تستعمله فى إرسال المعلومات إلى المركز فى اليابان ... وأن حكماً بالإعدام رمياً بالرصاص قد صدر ضدها ...

كان الوقت شتاء وقد وصلت درجة الحرارة إلى مادون الثلاثين تحت الصفر ، وبالرغم من هذا ، فلقد ألقوا بها فى كوخ ليس به فراش أو غطاء ... لم يكن هناك سوى حشية معبئة بالأوراق القديمة ، ونوافذ الكوخ قد تحطم زجاجها واستعاضوا عنه بورق مقوى لم يصمد طويلا أمام العواصف الثلجية التى كانت تجتاح المنطقة اجتياحا ... غير أن السيدة – هكذا قال ميخاليسكى – كانت ترتدى من الملابس ما يكفى لأن تقيها شر الموت بردا ، ولفترات طويلة لم تخلع ملابسها ، وظلت فى هذا الكوخ حتى صدر الحكم ضدها .

• • •

كان الفجر يقترب عندما استيقظت باندا ماكلويد من نومها على أصوات فى الخارج ، كان صوت الرياح قوياً وعنيفاً وقطع الثلج المندوف تتساقط منذ مساء الأمس دون توقف ، همت بالنهوض من رقدتها عندما اقتربت الأصوات من الكوخ ، لكن جسدها كان متيبساً تقريبا ، وكان الظلام فى الكوخ دامساً ، وكانت هى تعرف

يقينا ، انهم إذا جاءوا هذه المرة ، فلكى يضعوها أمام فرقة ضرب النار ... تماما ، مثلما حدث لأمها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ... وكان عليها ، كلما اقتربت الأصوات من الكوخ ، أن تستعد للقاء قدرها المحتوم ...

توقفت الأصوات والأقدام ، وفتح الباب .

وفزعت باندا ...

كانت الآن شاحبة واهنة تقدمت بها السن كثيراً عن ذى قبل ، ولابد أنها كانت قد فقدت الكثير من سحرها وجمالها اللذين اشتهرت بهما ... دفعها الخوف والفزع إلى النهوض فجلست فى الفراش تحملق فى الباب المفتوح وكانت ترتعد من البرد والفزع معا ... ثمة أشباح كانت تروح وتجىء وتتحرك فى فتحة الباب ... وسمعت باندا وجيب قلبها ، فلابد أنهم الآن يجهزون ساحة الإعدام لفرقة ضرب النار .

كان اليوم هو يوم ٢٤ ديسمبر عام ١٩٥٠ ، وكانت الحرب الكورية مشتعلة منذ شهور ... بعد دقائق مرت كأنها دهور ، أضىء مصباح كهربى يحمله رجل ... وفى الحال ، أضىء مصباحين آخرين ... وراحت أشعة المصابيح الثلاثة تفتش عنها فى أنحاء الكوخ الملىء بالأثاث القديم والمتهالك ... حتى إذا استقرت أشعة أحد هذه المصابيح على وجهها . توقفت حركة الرجال ، وانضمت أشعة المصباحين الآخرين إلى شعاع المصباح الأول فأعمى الضوء عينيها ...

من خلف الضوء المبنثق جاءها صوت رجل ، صوت بارد لاحرارة فيه :

« هل أنت خائفة ياسيدتى ! »

« أنا لست خائفة فقط ، ولكنى فزعه ! »

مضت لحظات صمت لم يأتيها فيها جواب ، فعادت تقول :

« ماذا تريدون منى ؟! »

تقدم منها أحد الرجال ، وحملق فى وجهها طويلا ثم قال :

« ألست فاشستيه ؟! »

راحت ترتعد بعنف ، فلقد هبت من الخارج دوامة من الهواء حملت معها قطعاً من الثلج المتساقط .

« انهضى ! »

هكذا جاءها الصوت مرة أخرى ، حاولت النهوض ولكنها اكتشفت أن ساقيها قد غطيتا بطقة من الثلج جعلت إحساسها بهما معدوما ، جاء صوتها الواهن يقول :

« لاأستطيع ! »

جذبها الرجل بعنف قائلا :

« انهضى ! »

من قلب الظلاج جاء صوت رجل صارم النبرات :

« لاتفعل هذا ! »

هم الرجل الأول بالحديث فعاجله هذا بقوله :

« لاتنسى أنى الآمر هنا ! »

مد الرجل يده كى يساعدها على النهوض بمساعدته وكانت تترنح ... كان هذا الذى امسك بذراعها يرتدى بذله غريبة ذات خطوط طويلة تمتد من أعلى إلى أسفل ، وكانت قبضته تبدو حانية وكأنها تحدثها بلغة خاصة ، رفعت باندا عينيها وحملقت فى الرجل ، فغمغم فى صوت هامس :

« لاتفكرى كثيرا ، فلن تعرفينى وإن كنت أعرفك حق المعرفة ! »

ولابد أنه باندا فكرت فى تلك اللحظة ، أن حديث الرجل لم يكن سوى خدعة من تلك الخدع التى تدفعها إلى الاعتراف ...

غادرت الكوخ وهى تسير بين الرجلين ... بينما بقى الثالث عند الكوخ ... كانت تسير بصعوبة بالغة ، كما أنها كانت ترتعد ... فسألها الرجل :

« أليست لديك ملابس أخرى ؟! » .

هزت رأسها نفيا ...

وكان عليهم الآن أن يخترقوا المعسكر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب حيث تقوم ثكنات الجنود ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر دقيقة ، سقطت خلالها باندا مرتين أثناء السير ، لكنها كانت ، بالرغم من الآلام ، تنهض كى تواصل السير .

اقترب الثلاثة من الكانتين . وجاءتهم من الداخل أصوات الجنود رغم الوقت المبكر ... واقترب بها الرجلان من أحد الأبواب ، فقال الأول :

« ما الذى سوف تفعله بها أيها الرفيق ؟! »

« إن القومسيير لن يأتى قبل السادسة صباحا ، ولذلك فلسوف نضعها فى هذه الغرفة إلى أن يأتى ! » .

فتح باب الغرفة وكانت خالية تماما من الأثاث ، لكنها — على كل حال - كانت أكثر دفئا من ذلك الزمهرير فى الخارج ، ما أن دلفت إلى الغرفة ، حتى أغلقوا الباب عليها .

قال ميخاليسكى ، أنه كان المسئول فى تلك الليلة عن باندا ماكلويد ، وأنه فكر فى وسيلة تهريبها وكان هذا مستحيلا بكل المقاييس ... أكثر ما كان يضايقه ، أن الأمر كان قد صدر له فى الليلة السابقة ، بأن يقود فرقة ضرب النار عند تنفيذ حكم الإعدام فى باندا ...

ولقد غاب ميخاليسكى مع زميله السابق لساعة ، ثم عاد إليها ، فتح الباب فى رفق ودلف إلى الداخل ، فانكمشت باندا لرؤيته والتصقت بالحائط .

« ماذا تريد ؟ ! »

أخرج من ملابسه « تورمسا » صغيراً قدمه لها هامساً :

« اشربى قليلا من هذا الشراب الساخن ، فسوف يفيدك ! »

حاولت أن تمد يدها كى تمسك بالتورمس ، لكنها عجزت ، فلقد كانت أصابعها متجمدة تقريبا !

« لماذا لاتقضون على بسرعة ! »

هكذا سألت فعاد ميخاليسكى إلى الهمس :

« إنى أفكر فى وسيلة لإنقاذك ، ولسوف أحاول ، وإن كنت أشك فى أن محاولتى سوف تنجح ! »

قال هذا وهو يحيطها بذراعه ، ويصب الشراب الساخن فى فمها :

« ماذا تريد منى ؟! »

« لقد وصل القومسيير ، هل تريدين نصيحتى ؟! »

«ماذا تريد أن تقول ؟! »

« سوف يعرضون عليكى التعاون معهم ، فتظاهرى بالموافقة ! »

« ليتنى أستطيع ! »

لم يفهم ميخاليسكى المغزى الكامن وراء جملتها فعاد يهمس بسرعة وهو يصب بعضاً من الشراب بين شفتيها :

« أقول لك تظاهرى أيتها السيدة ، تظاهرى بالموافقة لتنقذى رأسك ! »

« لست بقادرة على التظاهر . ! »

أدهشت ردود باندا الرفيق ميخاليسكى كثيرا ، وكان الوقت يمضى والقومسبير فى الانتظار ... ساعدها بعد ذلك على النهوض ، وصحبها إلى حيث مكتب القومسيير الذى كان يجلس خلف مكتبه فى انتظار وصول تلك الجاسوسية !

« هذه هى السيدة ياسيدى ! »

أدى الرجل التحية وتركها واقفة فى وسط الغرفة فترنحت وكادت تسقط ، لكنه واصل سيره ، حتى باب الغرفة ، ثم غادرها ...

نظر إليها القومسيير طويلا ثم أشار إلى مقعد قريب ، وفى صوت مهذب قال :

« هل لك أن تجلسى ! »

زحفت حتى وصلت إلى المقعد ، جلست وكانت ترتعد أكثر ... سألها القومسيير :

« هل لك فى فنجان من الشراب الساخن ! »

« ماذا تريدون منى ؟! »

ضحك الرجل وهو ينهض من مكانه دائرا حول مكتبه كى يقف قبالتها وهو يقول :

« أريدك فقط أن تعلمى أننا نعرف أنك باندا ماكلويد ! »

« قلت لكن ألف مرة أن اسمى وهلمينا فان درين ! »

كأنه لم يسمع ، عاد إلى الحديث :

« وإنك تعاونت مع اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية ! »

« لست أدرى عم تتحدث ! »

صمت قليلاً وكان واضحاً أنه يكظم غيظه ، ثم عاد إلى الحديث :

« وعلى كل فنحن نحمد لك تعاونك مع الوطنيين الأندونيسين ومساعدتك لهم »

« كان زوجى مبشرا و ... . »

قاطعها عائداً إلى مقعده وهو يقول :

« لعلك تصدقين تلك الأكاذيب التى يشيعها عنا الأمريكون » .

« سيدى ، لقد قصصت عليك قصتى فما فائدة العودة إلى الحديث فيها » .

« لأنها ملفقة وليست حقيقية ! » .

همت بالحديث فعاد إلى القول :

« ولأن حكما بالإعدام قد صدر ضدك ومن المفروض أن ينفذ الآن لكننا لانريد لك هذا المصير » .

« ولكن قصتى حقيقية وأنت تتحدث معى عن امرأة أخرى »

صرخ القومسيير مناديا :

« ميخاليسكى !! »

كان هذا اسم الجندى الذى أعطاها الشراب الساخن ووعد بمساعدتها ... وسرعان مافتح الباب ودخل ميخاليسكى مؤدياً التحية العسكرية :

« سيدى القومسيير ! »

« دع الرفيق بلاتير يدخل الآن ! »

وتساءلت باندا أين سمعت هذا الاسم من قبل ؟ ... ولم يطل تساؤلها ، فما هى إلا ثوان حتى دلف من الباب رجل طويل عريض مكتنز الجسم بالشحم ، وكان ، رغم بروده الجو يلهث ... تقدم بلاتير حتى وقف أمامها وهو يغمغم :

« إن العالم صغير يا باندا !! »

الآن تذكرت بلاتير ، ذلك الموظف فى مكتب الحاكم الهولندى الذى كان يمدها بالمعلومات كى توصلها إلى عبدالله ... جاءها صوت القومسيير كأنه يأتى من عالم بعيد :

« لعلك تدركين الآن إننا نعرف عنك أكثر مما تتصورين ! »

لزمت باندا الصمت ، وهم بلاتير بالحديث إلا أن القومسيير طلب منه مبارحة الغرفة ...حتى إذا خلت ، قدم لها فنجانا من شراب ساخن ... ثم حمل مقعده وجلس أمامها قائلا :

« والآن »

« ماذا تريدون منى ؟ »

« لا شىء أكثر مما فعلتيه من قبل !! »

« لست أفهم جيداً ما ترمى إليه »

« لقد عملت لحساب اليابانيين ، ثم عملت ضدهم لحساب لمقاومة الأندونيسية ، ثم عملت بعد ذلك لحساب واشنطن ... فلماذا لا تنقذين رأسك وتعملين لحسابنا هذه المرة ؟ »

صمتت باندا وكان جسدها ، بالرغم من الشراب الساخن يرتجف ... طال صمتها فأشعل القومسيير سيجارة وقدمها لها فهزت رأسها نفياً ... جاءها صوته هامساً :

« إنى مكلف بإعدامك الآن ... ألا تفهمين ؟!! »

هزت الآن رأسها إيجاباً ، فعاد إلى القول :

« إنك لن تخسرى شيئاً ، ولكنك ستكسبين حياتك ! »

عندما رفعت رأسها إليه الآن ، كان الدمع ينحدر فوق وجنتيها بغزارة ، وكانت شفتاها ترتجفان فى محاولة للحديث ... ثم استطاعت أخيراً أن تقول :

« لا أستطيع ... لم أعد قادرة على الاستمرار !! »

« هل تريدين مهلة للتفكير ؟!! »

« لا تضيع وقتك يا سيدى ... لم أعد استطيع ... لم أعد قادرة !! »

زفر القومسيير وهو ينهض ... سار إلى الباب وفتحه فظهر ميخاليسكى ، سأله :

« **هل أنت قائد فرقة الإعدام ؟!** »

« **نعم سيدى القومسيير !!** »

التفت القومسيير نحوها ، اختطف منها نظرة ثم قال فى أسف :

« **عليك أن تقوم بمهمتك الآن** »

• • •

قال النقيب هورس ، بعد أن استمع إلى قصة ميخاليسكى :

« **هل تعرف من هى باندا ماكلويد ؟** »

قال ميخالسكى :

« **لقد حاولت إقناعها بالاستمرار حتى تحين فرصة الهرب ولكنها رفضت ... وكان كل ما قالته أنها لم تعد تستطيع الاستمرار** »

قال هورس :

« **لقد حضرت يا صديقى مصرع ابنة ماتا هارى** »



الملاك الأسود

١

منذ قرأت قصة هذه الفتاة السويسرية ، وكان هذا منذ سنوات ، وأنا حائر فى أى خانة يجب أن توضع ، وتحت أى تصنيف بشرى من الممكن أن نحتسبها ؟!

اسمها الحقيقى « كارمن مارى مورى » ، ومهنتها ، منذ أن شبت عن الطوق ، كانت التجسس ... فى البداية لحساب النازى ، وفى النهاية ، ولكى تنقذ عنقها ، وبقوة الدفع أيضاً ، تجسست لحساب القوات البريطانية التى كانت تحتل جزءاً من ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية .

كانت البداية فى عام ١٩٣٨ . ذلك العام الذى زحفت فيه قوات هتلر كى تحتل أرض النمسا والسوديت ... ذلك العام الذى شهد أزمة ميونيخ ، والذى تصاعد فيه عدوان هتلر على الدول المجاورة وضمها إلى ألمانيا ، عندما كان يفرض شروطه على العالم فيخضع ، ويستعيد لألمانيا مجدها بعد هزيمتها البشعة فى الحرب العالمية الأولى !

ونحن ، كى نفهم هذا التاريخ جيداً ، علينا أن نعرف طبيعة الظروف السياسية فى أوربا ، بل فى العالم أجمع فى تلك الأيام ... وكما كان نابليون فى يوم من الأيام حلم الشعوب الأوربية ، وممثل الثورة الفرنسية ، وبطل الأبطال ومعبود الجماهير ... كذلك كان هتلر فى الثلاثينيات من هذا القرن ... كان هتلر ديكتاتوراً ، وكان سفاحاً ... هذا حق ، لكن الذى لا يذكره الناس الآن ، هو أنه كان زعيماً لا يبارى ، كان إذا ما خطب أرهفت الأذان لسماع كلماته ، وكان يقود ألمانيا إلى حيث المجد بعد أن هزمت فى الحرب العالمية الأولى ، وكانت هزيمتها منكرة ... لذلك ، فلم يكن غريباً أن تسحر مبادئه شباب أوربا ، خاصة هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى النمسا وسويسرا .. وهكذا ، لم يكن غريباً أن تعمل « كارمن مارى مورى » لحساب المخابرات الألمانية ... ومع جمالها الآخاذ الذى كان يخلب لب الشباب والرجال على السواء ... كان من الطبيعى أن تقوم بمهمتها على أكمل وجه ! .

وإذا كنا لا نزال نذكر « **خط بارليف** » الذى طنطنت الدعاية الإسرائيلية ، بل والغربية كلها بقوته وصلابة تحصيناته واستحالة غزوه – قبل عام ١٩٧٣ – فلقد سبقه بسنوات طويلة خط دفاعى آخر أنشأته فرنسا بطول حدودها من سويسرا وحتى بلجيكا ... ولقد عرف هذا الخط باسم « خط ماجينو » !

كان خط ماجينو خطاً دفاعياً فريداً بكل ما تحمل الكلمة من معنى .. كان ثمة خطوطاً كهربية تحت الأرض تنقل المعدات والمدافع والأسلحة من مكان إلى مكان ، وكانت هناك معسكرات بكاملها

تحت الأرض أو دشم تجعل عبور الخط من المستحيلات ... كما كان طوله ، وامتداده بطول حدودها مع دولة أخرى ، أمراً يجعل تصور اختراقه أو وقوعه ، **بالغ الصعوبة !** .

ولذلك ، فعندما وقع الاختيار على كارمن ، كى تنقل إلى الألمان ، تفاصيل التحصينات فى هذا الخط ، كانت المهمة بالغة الأهمية ، بالغة الخطورة ، لكن كارمن قالت لرجل المخابرات الألمانى الذى دربها ، والذى وضع لها خطة عملها ، أنها سوف تقوم بالمهمة على أكمل وجه !

ولأنها سويسرية ، وليست ألمانية ، فلقد كان نزوحها إلى باريس أمراً طبيعياً للغاية ... وهكذا ، سافرت كارمن فى عام ١٩٣٨ إلى باريس ، وكانت تملك الكثير من المال الذى وضعه الألمان تحت أمرتها ... وما هى إلا أسابيع ، حتى استطاعت أن تصبح واحدة من نجوم المجتمع الباريسى البارزين .

ولابد لنا – بداية – من الوقوف قليلاً عند هذه النقطة .

ذلك أن العميل ، أو المندوب ، إذا ما انتقل إلى معسكر الأعداء ... فلابد له فى البداية من مرحلة يمكننا أن نطلق عليها « مرحلة الكمون » ... هذه المرحلة التى لا يصبح مطلوباً من العميل فيها أن يبدأ نشاطه ، بل يصبح من الضرورى ، أن يعيش حياة عادية للغاية . أن يشق طريقه وسط المجتمع كى يجد لنفسه مكاناً ملائماً للمهمة التى عليه أن يقوم بها ... هذه مرحلة يعيش فيها العميل حياة عادية للغاية لا تلفت الأنظار إليه ، ولا تبعث بالشك من حوله !

لكن كارمن استطاعت ، بعد فترة وجيزة ، وربما قياسية ... أن تدعم مكانتها فى المجتمع الباريسى الأرستقراطى ، وبالتالى ، فلقد كانت ، مع جمالها ووفرة مالها وجواهرها ، أن تصبح محط أنظار الشباب الباريسى ورجاله الذين يعشقون الجمال لذاته ... ولقد استطاعت كارمن ببراعة يحسدها عليها الكثيرون ، أن تحيط نفسها بمجموعة منتقاة من ضباط الجيش الفرنسى بالذات ، ورجال وزارة الخارجية ، مما جعل هذه المجموعة ، تسرع إلى تلبية رغبات كارمن ، مهما كانت تلك الرغبات !

وكعادة الأرستقراطية فى كل الدنيا ، فلقد انتاب كارمن ، بعد بضعة أشهر عاشتها فى باريس كنجمة من نجوم المجتمع ، سأم وملل دفع بالمعجبين إلى التسابق فى محاولة لإرضائها ، ولدفع الملل عنها !!

كان هدف كارمن بالتحديد ، هو خط ماجينو ، وخط ماجينو ليس قريباً من باريس ، إنه يبعد مئات الأميال ، هناك ، عند الحدود ... وهكذا ، كانت فكرة عظيمة دونَ شك ، تلك التى عُرضت عليها من « الشلة » المحيطة بها ، وهى فكرة القيام برحلات إلى الريف الفرنسى .

وهكذا وجدت كارمن نفسها تتجول فى القرى البعيدة عن باريس ، القريبة من الحدود ... فراحت تنتقل من قرية إلى قرية ، ومن مكان إلى مكان ... وكان طبيعياً ، أن تقترب أكثر من خط ماجينو حيث كان الضباط هناك يرحبون بمقدمها . ويرون فيها حسناء تذكرهم بليالى باريس الملتهبة بالفن والحياة ... وبدأت كارمن

جولتها فى خط ماجينو ، ولما كانت تملك ذاكرة حديدية ، كما وصفتها واحدة من اللواتى عرفنها فيما بعد وعانين منها . فلقد كان سهلاً عليها أن تتعرف على كل المراكز الحقيقية فى خط ماجينو ، وعلى نظام العمل فيه ، وعلى المعسكرات القائمة تحت سطح الأرض ، والدشم ، وطريقة توزيعها ، ووسائل النقل الكهربية - وكانت هذه بالذات فى تلك الأيام معجزة علمية بكل ما تحمل الكلمة من معنى - كما عرفت الكثير عن حقول الألغام ... وأسلوب توزيعها ، وعن شباك اصطياد الدبابات و ... و ... وطوال أسابيع ، كانت « كارمن مارى مورى » ، ترسل إلى ألمانيا بتفاصيل ما رأته وشاهدته ... وكان هذا الذى رأته وشاهدته بالنسبة للرايخ الثالث ، كنز لا يقدر بمال ! .

• • •

كان فندق الملك جورج الخامس فى باريس ، هو ملتقى الطبقة الأرستقراطية فى عاصمة النور ، كما كان أيضاً هو المكان المفضل لمثل هذه الجاسوسة البارعة ... حتى كان يوم ...

كان عام ١٩٣٨ قد انقضى وجاء عام ١٩٣٩ يحمل نذر الحرب العالمية الثانية ... وإذا كان هتلر قد تجاوز حدوده فى ذلك العام بالذات فراحت جيوشه تكتسح فى طريقها دول وسط أوربا دولة بعد أخرى ، فإن الفرنسيين ، الذين كانوا متأهبين فعلاً للحرب ، كانوا يفخرون بخطهم الدفاعى هذا الذى لا يقهر ... وكما فعل الإسرائيليون بعد أقل من أربعين عاماً عندما أنشأوا خط بارليف ، راح الفرنسيون يزهون بهذا الخط الذى كان كفيلاً بأن يصد جيوش هتلر إذا ما حاول غزو فرنسا !

وذات ليلة ... كانت كارمن تسهر فى فندق الملك جورج الخامس ، مع اثنين من الضباط الفرنسيين ... وكان الحديث ، بطبيعة الحال وواقع الأمر فى أوربا فى تلك الأيام ، يدور حول الحرب المحتملة ... ولما كان نجاح كارمن ، طوال عام وبعض عام ، قد أمدها بالكثير من الثقة بالنفس ، فلقد تطور الأمر مع الأيام وتحولت الثقة إلى نوع من الاستهتار بالآخرين ... لذلك ، فهى لم تفكر ، ولم يخطر ببالها ، أن هذين الضابطين الذين كانا بصحبتها فى تلك الليلة من ليالى عام ١٩٣٩ ، كانا من المكتب الثانى ، أى المخابرات الفرنسية !!!

... ...

... ...

تلك مرحلة لا نعرف عنها الكثير ، وحتى هؤلاء الذين تتبعوا قصة كارمن مارى مورى ، لم يتمكنوا من العثور على الوثائق الخاصة بمراحلها المختلفة ... غير أن الذى لاشك فيه ، هو أن المكتب الثانى الفرنسى ، كان ، منذ فترة ، قد بدأ يشك فى تلك الحسناء التى خلبت ألباب الضباط ... لم يكن الشك قوياً ، بل ربما كان شكاً روتينياً إن صح التعبير ... كما أنه لم يكن من السهل كشف أمرها لو أن هذا الشك كان قوياً ، ذلك أن كارمن كانت شديدة الحذر ، تتبع تعليمات ضابطها الألمانى بدقة متناهية ... ولكن خطأً واحداً وبسيطاً ، خطأً كانت هى مصدره ، حوّل الشك إلى يقين ، فألقى القبض عليها !!

فى تلك الليلة ، شربت كارمن كثيراً ... ولما كان الحديث يدور حول الحرب المحتملة بين يوم وآخر ، ولما كان الضباط الفرنسيين يتباهون بخط ماجينو متحدثين عن هتلر وجيوشه فى استخفاف ... فيبدو أن الأمر قد استفزتلك الفتاة حتى أطلقت لسانها بالحديث دون حذر ... وفى مثل تلك الظروف ، ومع التوتر القائم فى العالم أجمع ، كان لابد للشك أن يتصاعد ، ومع استمرار ثرثرتها ، كان لابد للشك من أن يتحول إلى يقين ... وفى اليوم التالى ، تم اعتقالها ، ووضعت فى سجن « بكيت روكيت » وهو سجن النساء القائم فى ضواحى باريس .

... ...

... ...

فى مثل هذا العالم الملىء بالغموض ، لا تتم الأمور دون حسابات بالغة الدقة ، وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد نشبت فى يوليو ١٩٣٩ ، فإن كارمن مارى مورى ، لم تتم محاكمتها إلا فى أبريل سنة ١٩٤٠ ، عندما وقفت أمام محكمة عسكرية ، أصدرت حكمها عليها بالإعدام رمياً بالرصاص !

كانت الحرب قد اشتد أوارها ، وكان قد أصبح واضحاً أشد الوضوح أن هتلر ينوى الهجوم على فرنسا واجتياحها بالرغم من خط ماجينو وتحصيناته ... ولذلك ، فلقد استبدل الرئيس الفرنسى حكم الإعدام عليها ، بالسجن مدى الحياة ... وبعد ستة أسابيع لا تزيد ، كان الألمان قد اقتحموا خط ماجينو ، وكانت فرنسا كلها قد سقطت تحت أقدام جنود هتلر ، ثم أعلنت استسلامها !

وما أن دخل الألمان إلى باريس ، حتى أُطلق سراح كارمن ... ولكن ...

ولكن كارمن غادرت السجن وهى تعرف يقيناً أن حكماً آخر بالإعدام سوف يصدر عليها من الألمان هذه المرة ... ذلك أن الخطأ الذى وقعت فيه لم يكن ليغتفر ، وزلة لسان من عميل له أهميتها ليست بالخطأ الذى يمكن التجاوز عنه ... ولذلك ، وبعد بضعة أيام لم تتعد الأسبوع ، تم استدعاء كارمن للسفر إلى برلين ... فأدركت أنها ستعدم لا محالة ، ولم يكن هناك مفر من الإذعان . فركبت الطائرة إلى برلين ، وعلمت ، فور وصولها ، أن هناك موعداً قد تحدد فى اليوم التالى مع رئيس « الجستابو » الشهير « رينهارد هيدريش » الذى أطلق عليه فيما بعد لقب « جزار بوهيميا » !

• • •

فى صباح اليوم التالى ، وعندما ركبت كارمن السيارة فى طريقها إلى مكتب هرهيدريش ... لم تكن فى حاجة لأن تعرف مدى قسوة هذا الرجل ... لكنها لم تكن تعلم أيضاً أن تلك الحسابات المعقدة عن إمكانياتها ومدى صلاحيتها للوظائف المختلفة ، من الممكن أن تغير الحكم بالإعدام ، كى تتم الاستفادة منها فى شىء آخر !

بداية ... لم يكن من السهل ، مع احتدام الحرب بين المحور والحلفاء فى ذلك الوقت ، الاستغناء عن جاسوسة لها مهارة كارمن وقدرتها على التذكر ... ذلك أنها عندما كانت تزور القرى المجاورة لخط ماجينو ، وعندما كانت تزور مواقع هذا الخط الحصين ، كانت

حريصة على ألا تزور المكان الواحد أكثر من مرة واحدة حتى لا تلفت الأنظار إليها ، وكان هذا دليلاً على حدة ذكائها وذاكرتها معاً ... ثم ، كانت مهارتها اللغوية شىء له قيمته ... فلقد كانت تلك الفتاة الغريبة تتقن إلى جوار الفرنسية ، الإنجليزية والهولندية معاً ... ولذلك ، وعندما دخلت إلى مكتب رئيس الجستابو الذى كان مجرد ذكر اسمه يلقى الرعب إلى القلوب ... حتى حدجها الرجل بنظرة نافذة ... وما إن وقفت أمام مكتبه حتى هتف :

« مرحباً فى برلين يا كارمن ! » .

لم تكن الجملة تعنى شيئاً ، فتمتمت كارمن بكلمات شكر وهى تنتظر فى لهفة فرصة للدفاع عن نفسها والاعتذار عن الخطأ الذى وقعت فيه ... ولقد جاءتها الفرصة عندما غمغم الرجل وهو يتفحصها بعينيه :

« لقد كنت محظوظة إذ ظللت على قيد الحياة حتى الآن ! »

هنا .. كانت الكلمات تحمل أكثر من معنى ، كما كانت تحمل فى نفس الوقت شحنة من التهديد لا تخفى ، ولذلك ، فسرعان ما هتفت كارمن :

« كان من الواجب ألا أسمح لنفسى بالوقوع فى مثل الخطأ الذى وقعت فيه ... إنه بالفعل جريمة لا تغتفر .. غير أنى ... ... !! »

رفع الهرهيدريش يده فتوقفت عن الحديث فى طاعة عمياء ... ساد الصمت لثوان قال بعدها فى بطء من يريد لكلماته أن تصل إليها بكل ما فيها من معانى :

« لقد كان هذا فى الماضى ! » .

لمعت عينا كارمن فلقد بدا لها أن باب الخلاص يفتح لأول مرة ... وما لبث رئيس الجستابو أن قال وهو يميل على مكتبه :

« إن أمامنا الكثير من العمل علينا أن ننجزه ! »

غاضت الدماء من وجهها وقد أدركت من كلماته أن العفو لم يصدر عنها بعد ... وأن الحاجة إليها الآن أشد من ضرورة إنزال العقاب بها ... وهى ، فى نفس الوقت ، كانت تعلم علم اليقين ، أن ثمة عملاء وقعوا فى أخطاء أقل بكثير من خطئها الذى اقترفته ، وبالرغم من هذا فلقد أرسلوا إلى معسكرات الاعتقال أو أطلقت فرقة ضرب النار رصاصها نحو صدورهم ذات فجر منفذة حكماً للإعدام كان قد صدر !!

وعلى كلٍ ...

فلقد كانت هناك فرصة لأن تكفر عن ذنبها ...

أشار الهرهيدريش نحو مقعد فجلست طائعة ، نهض من خلف مكتبه ودار حوله حتى وقف أمامها محدجاً إياها بنظرات خالت أنها مثل أسياخ النار تخرق رأسها ... قال :

« سوف نرسلك إلى هولندا وبلجيكا ! »

« سوف أذهب إلى أى مكان تحدده هرهيدريش ! » .

« عليك أن تنضمى إلى المنظمات التى تقاومنا هناك ! »

« لا عليك ، ولسوف تكون المهمة سهلة ! »

تحرك هرهيدريش عائداً إلى مقعده وقد انفرجت أساريره وهو يقول :

« اشتركى معهم فى كل شىء ، ولا تتورعى عن شىء ... فقط ، عليك أن تمدينا بأسماء الذين يتزعمون مثل هذه المنظمات ، والعلاقات بينها وبين بعضها ، وماذا يعملون ، والوظائف التى يشغلونها . وأماكن الاجتماعات ، والأهم من كل هذا ، لابد لك أن تعرف كل شىء عن عائلات زعماء هذه المنظمات بالتحديد ، أفراد أسرهم ، زوجاتهم ، وأولادهم ، أمهـــاتهم ، أقربائهم ! .. » .

صمت الهرهيدريش لثوان ثم سألها :

« هل فهمت ؟! » .

كان معنى السؤال أن المقابلة قد انتهت ، فهبت واقفة وهى تقول :

« لن أخيب ظنك هذه المرة ! » .

« أرجو هذا »

« ثق من هذا هرهيدريش . إن مثل هذه المهمة ، تلذ لى كثيراً ! » .

وقف هيدريش خلف مكتبه ملقياً بآخر تعليماته :

« ستكون أوراقك جاهزة فى الصباح ! » .

« وما هى الشخصية التى سوف انتحلها ! »

« شخصية امرأة فرنسية هاربة من الاحتلال الألمانى لباريس ! » .

« حسن ... فأنا أتقن الفرنسية كالباريسيين أنفسهم ! » .

« وأعتقد أنك ستكفرين عن الخطأ الذى وقعت فيه ! » .

« سوف أفعل ... شكراً لك هرهيدريش ! » .

« لا عليك كارمن ! » .

رفعت ذراعها بتحية النازى هاتفة :

« هايل هتلر ! »

« هايل هتلر ! »

هكذا رفع رئيس الجستابو يده فى استرخاء وهو يتتبع جسد كارمن الدقيق وهى تغادر غرفته !

... ...

... ...

كان رئيس الجستابو ، بالتأكيد ، يعرف خطورة المهمة التى ستقوم بها كارمن ... غير أن كلمة صدرت عنها ، طوال الحوار الذى دار بينهما قد لفتت نظره ... وهى كانت تعلم يقيناً ، أن تلك الأسماء التى سوف تشى بها للجستابو ، سوف يلقى بأصحابها فى معسكرات الاعتقال وسوف يلقون من التعذيب ما يقشعر له البدن ... فكيف ، بل لماذا قالت أن المهمة « تلذ » لها ؟!

كان على الهرهيدريش أن يفكر فى الأمر ملياً ... وأن يعرف مغزى الكلمة التى قد تكون ، فى واقع الأمر ، هى المفتاح السحرى لتلك الشخصية الغريبة ، لفتاة لم تتعد الثلاثين من عمرها ، باهرة الجمال ، واسمها كارمن مارى مورى ؟! .





رحلت كارمن مارى مورى إلى هولندا ثم إلى بلجيكا... وكانت ، منذ وصولها عند حسن ظن رئيس الجستابو بها ... فلقد استطاعت كارمن ، لا أن تكشف فقط زعماء حركات المقاومة فى تلك البلاد ... لكنها أيضاً استطاعت أن تصل إلى تفاصيل دقيقة عن أسلوب عمل منظمات المقاومة ورجالها ونسائها ووسائل اتصال بعضهم بالبعض... الغريب فى الأمر ، أن أولى ضحاياها كانت فتاة فى السابعة عشر من عمرها ، وكانت تعمل كاتبة على الآلة الكاتبة فى إحدى الشركات ... ولما كان أخوها قد مات برصاص الجنود الألمان ، فإن الفتاة لم تتردد عندما طلب منها رجال المقاومة أن تقوم بدور ساعى البريد بين مراكز المقاومة المتناثرة ... ولما كانت الرسائل التى تحملها هذه الفتاة شفرية ، أى مكتوبة برموز خاصة ، فإنها لم تكن تعرف عن محتوى الرسائل شيئاً ... كان كل المطلوب منها إذا ما تسلمت رسالة من مركز ما ، أن توصل الرسالة إلى المركز التالى الذى يحددونه لها !

يقول الكاتب « كورت سنجر » ، وهو واحد ممن تتبعوا قصة هذه الشيطانة الصارخة الجمال ، أن كارمن كانت فى قلبها « **صيادة للبشر** » ... كانت تهوى إلى حد العشق ، أن تلقى بالفريسة إلى أيدى الجلادين ، ثم تقف متلذذة بمنظر الرعب المرتسم على وجه الفريسة ... وعندما علمت بأمر تلك الفتاة ، أبلغت عنها ، وعن موعد تسلمها للرسالة ، وعن الطريق الذى سوف تسلكه ، مما جعل مهمة الجستابو هينة إلى أقصى حد ... ولقد ألقى القبض على تلك الفتاة ، وخضعت للاستجواب عن فحوى الرسالة التى لم تكن تعرف عنها شيئاً ... ولا يدرى أحد شيئاً عما حدث لها ، لا يدرى أحد أن كانت قد اعترفت أم لزمت الصمت ... ذلك أن أحداً لم تقع عينه عليها بعد ذلك أبداً !!

• • •

ثم ...

تبدو التفاصيل بعد ذلك بالغة البشاعة ، فلقد قامت كارمن بعملها على خير وجه ، وأرسلت العشرات من رجال المقاومة ونسائها وشبابها وفتياتها إلى مثواهم الأخير ، أو إلى معسكرات التعذيب دون أن يطرف لها جفن ... ولكن ... وكما حدث عندما استطاعت الحصول على أسرار خط « ماجينو » الفرنسى ، عادت إليها ثقتها بنفسها ، بل أن تلك الثقة تزايدت إلى الحد الذى دفع بها إلى الوقوف فى وجه واحد من كبار ضباط الجستابو ، وأن تلقنه درساً لم ينسه طوال حياته .

كان هذا الضابط – منذ البداية – يشك فى أن كارمن تعمل كعميلة مزدوجة ، وبالتالى كان يشك فى ولائها للرايخ الثالث خاصة وأنها ليست آرية ، إنما هى سويسرية اعتنقت النازية وألقت بنفسها فى خضم ذلك الصراع الوحشى الذى تفجر فى وسط أوربا ...

وذات يوم ، وكانت كارمن فى مكتب هذا الضابط تبلغ عن آخر ما وصلت إليه ، عندما دارت بينهما مناقشة اتهمها فيها ذلك الضابط بأنها تلقى إليهم بالسمك الصغير تاركة الأسماك الكبيرة تكبر أكثر وتتوحش فى مقاومتها للنازى .

وفى حقيقة الأمر ، فلقد كان هناك وجهان لتلك المشكلة .

كان الوجه الأول ، هو تزايد العنف فى حركة المقاومة فى هولندا وبلجيكا يوما بعد يوم ... وكان هذا العنف يسبب أرقاً دائماً ، وصداعاً مزمناً للقوات الألمانية وللجستابو على وجه التحديد ...

أما الوجه الثانى ، والذى لم ينتبه إليه هذا الضابط ، أن كارمن لم تكن تسعى فقط وراء زعماء المقاومة ، بل أيضاً وراء كل من ينتمى إلى منظمة من منظماتها سواء أكان كبيراً أم صغيراً ...

وربما كان هناك وجه ثالث ، وإن كان يبدو ثانوياً إلى حد كبير ... وهو أن الجستابو كان مصابا بعصبية رهيبة نتيجة لتزايد الضغط فى حركات المقاومة فى كل بلدان أوربا التى احتلها الألمان ...

وعلى كل ، فإن كارمن لم تتحمل النقد من ذلك الضابط فصرخت فى وجهه :

« **لا تعلمنى كيف أقوم بعملى !** » .

حاول الضابط الاستمرار فى المناقشة ، لكنها عاجلته :

« لقد نسيت أننى أعرف أكثر بكثير مما يتوافر لك معرفته ! » .

جاءت جملتها الأخيرة مثل لطمة وجهت إلى الرجل الذى كان مفروضاً أن يعرف أكثر من أى فرد آخر فى مكانها ... احتدم الضابط واحتقن وجهه ، فقالت فى برود قبل أن تتركه وتمضى :

« وعلى كل ، فعندما أكون فى حاجة إليك ، سوف أطلب مساعدتك دون تردد ! » .

قالت كارمن هذا ، وتركت الضابط فى حالة من الغليان دفعته إلى أن يكتب تقريراً سرياً أرسل به إلى الهرهيدريش رئيس الجستابو ... وكان هذا كل ما يمكن أن يفعله مع هذه السيدة العاتية !!

... ...

... ...

إلى هنا ، ولا يملك الإنسان نفسه من تأمل الموقف ... فمن المعروف ، أن رئيس الجستابو فى أى منطقة من مناطق الاحتلال النازى ، كان يملك سلطات واسعة وصلاحيات ليس من المصلحة أن يتغاضى عنها ، غير أن الأمر هنا ، مع كارمن مارى مورى ، بدا غريباً كل الغرابة ، ذلك أن ضابط الجستابو لم يتحمل الإهانة فقط ، ولكنه لم يتصرف أيضاً ، وكل ما صنعه هو كتابة تقرير سرى إلى الرئاسة فى برلين .

إلى هذا الحد كانت كارمن مارى مورى قوية ... وإلى هذا الحد أيضاً كانت مهمة ...

فعندما وصل التقرير السرى إلى الهرهيدريش ، لم يجد الرجل أمامه إلا أن يضع أعمال تلك السيدة وإنجازاتها أمامه على المائدة ... حقاً ، هى لم تكن آرية ، لكنها نازية ، وكانت خدماتها للرايخ الثالث أكبر وأثمن من إغفالها من أجل إهانة وجهت إلى أحد ضباط الجستابو ... ثم – وهذا هو المهم فى الأمر – لم يكن سهلاً أن يضحى الهرهيدريش ، بواحدة من عميلاته تملك كل تلك الملكات الفذة ...

ولابد أنه فى موقفه هذا قد تذكر كلمتها التى استوقفته فى آخر لقاء لهما ، عندما قالت أن تلك المهمة « تلذ » لها ... ذلك أن استمرارها فى العمل فى نفس الموقع مع ذلك الضابط الذى وجهت إليه الإهانة كان مستحيلاً ، ولهذا ، فلقد أصدر قراره بنقلها إلى معسكر اعتقال النساء فى « ريفنسبروك » !

• • •

يقع معسكر « ريفنسبروك » على بعد خمسين ميلا شمالى برلين ... وهو معسكر للنساء نال شهرة بشعة ... ويكفى أن نعرف ، أن ثمانين ألف امرأة من دول أوربا المختلفة ، قد لقين مصيرهن فى هذا المعسكر الذى كان مجرد ذكر اسمه يبعث بالرعب إلى قلوب الناس ...

ذهبت « كارمن مارى مورى » إلى هذا المعسكر كسجينة حرب

وليست كسجانة ... ذهبت ، كى تندس وسط السجينات كى تعرف أخبارهن ... وكان من بين المعتقلات فى هذا المعسكر ابنة شقيقة الجنرال ديجول الذى كان – فى ذلك الوقت – يقود حركة المقاومة الفرنسية من الخارج ...

ولقد عينت كارمن رئيسة لأحد مبانى هذا المعسكر ... وهى كمسجونة سياسية ، كان عليها أن تدير ذلك المبنى الذى يضم نساء من رعايا دول الحلفاء ذوات المكانة ، واللواتى كن فى ألمانيا عندما اندلعت الحرب ، أو كن من أسر البعثات الدبلوماسية لدى حكومة برلين ... وكانت قائدة المعسكر تشك فى أن ثمة محاولات تبذل لتهريب بعض السيدات الأسيرات خارج المعسكر وخارج ألمانيا بالطبع ... ولقد وجدت كارمن فى هذا المعتقل الرهيب ، متنفساً لرغباتها فى الإيذاء والإيلام ، حتى أطلق عليها الجميع اسم « الملاك الأسود » ! .

• • •

لأربع سنوات طوال ظلت كارمن فى هذا المعتقل ، ترتكب من الفظائع ما لا يمكن أن يتصوره سوى هؤلاء الذين عرفوا حقائق معسكرات التعذيب فى أوشفيتز وريفنسبروك وغيرها من معسكرات التعذيب النازية ... لأربع سنوات لم يكن يلذ لها شىء فى الحياة قدر تعذيب الأخريات ، إلى الحد الذى جرت فيه عشرين سيدة عجوز من إحدى الغرف ، ومن شعورهن ، كى تلقى بهن خارج الغرفة ، فوق أرض المعسكر المكسوة بالجليد ، وتحت سماء يتساقط منها الجليد دون غطاء أو واق يقيهن شر التجمد !! .

غير أن لكل ليل نهاية ...

ولقد جاءت النهاية عندما حررت القوات السوفيتية الزاحفة ، كل المعتقلات فى هذا المعسكر الرهيب ، ولكن ... وقبل وصول القوات السوفيتية ، كانت كل السجانات فى هذا المعسكر قد اختفين تماماً عن الأنظار ، وكانت من بينهن ، كارمن مارى مورى ، التى عرفت فى هذا المعسكر باسم « الملاك الأسود » ! .

... ...

... ...

مرة أخرى ، لا يملك الإنسان إلا أن يقف مشدوهاً أمام تصرفات هذه السيدة ، التى مارست التجسس ليس من أجل المال ، ولا من أجل الجنس ، ولا حتى المبدأ التى تظاهرت فى البداية بالإيمان به ، وهو النازية ... فلقد استطاعت كارمن أن تهرب ، ليس من المعسكر فقط ، بل من ألمانيا الشرقية بكاملها ، ثم عبرت الحدود ، إلى حيث كانت القوات البريطانية تحتل نصيبها من أرض ألمانيا فى الغرب !!

وإذا كانت ألاعيب الجاسوسية تمارس على الناحيتين . فإن القوات البريطانية كانت بالطبع تشك فى كل هؤلاء الذين يعبرون الحدود هرباً من السوفييت ... وكانت كارمن واحدة من هؤلاء ، فلقد تقدمت إلى القوات البريطانية . وكانت لا تزال تحمل جواز سفرها الفرنسى وتحتفظ به ، مدعية بأنها كانت سجينة سياسية فى معسكر « ريفنسبروك » للنساء ... قالت هذا ثم أضافت :« أنها تعرف كل سجانات هذا المعسكر وكل الموظفات والموظفين الذين مارسوا فيه

التعذيب على عشرات الألوف من النساء اللواتى كن يحملن جنسيات الحلفاء ...

ولم يكن أمام البريطانيين من سبيل ، وأوراقها كلها سليمة ، إلا أن يستعينوا بها ... ففى تلك الأيام التى أعقبت استسلام ألمانيا ، لم يكن من هم للحلفاء ، إلا مطاردة قيادات النازى ، وسجانى هذه المعتقلات التى فاقت بشاعة ما كان يتم فيها كل خيال ...

وكعادة كارمن ... استطاعت فى فترة وجيزة أن تكتسب ثقة البريطانيين إلى الحد الذى قال فيه أحد رجال المخابرات البريطانية : أن عقلها كان أشبه بالأرشيف المنظم الذى لا يمكن أن يفقد اسماً ولا وظيفة ولا حادثة ... ولقد ساعدتها ذاكرتها الحديدية ، التى أفصحت عن نفسها لأول مرة عندما كانت تتجسس على خط ماجينو ... كانت كارمن تعرف أسماء وأوصاف وتواريخ أغلب رجال الجستابو فى ألمانيا ... وفى حماس و ... ولذة ، راحت تساعد البريطانيين على اصطيادهم فرداً وراء الآخر ، وتمتع نظرها ، بذلك الخوف العربيد الذى كان ينتاب الفريسة لحظة القبض عليها ، ثم تستدير بحثاً عن فريسة أخرى !

وهكذا عاد « **الملاك الأسود** » إلى نشاطه مرة أخرى تحت مظلة البريطانيين ، وكان من أهم المجرمين المطلوب العثور عليهم ، طبيب ألمانى اسمه « فيستشر » ، كان يجرى تجاربه العلمية ، لا على الفيران كما هى عادة العلماء ، ولكن على نساء معسكر ريفنسبروك ، مما أدى إلى وفاة المئات منهن نتيجة لتجاربه المميتة ...

حتى كان يوم ، دخلت كارمن فيه إلى مبنى المخابرات البريطانية فى القطاع البريطانى فى ألمانيا ، كى تواجه الضابط المسئول هناك قائلة :

« **لقد سمعت أنكم تبحثون عن دكتور فيسنشر !** »

نظر إليها الضابط فى دهشة لم تدم ، ذلك أنه تذكر أن هذه السيدة الرقيقة الحجم ، تملك ذاكرة حديدية ساعدتهم فى إلقاء القبض على العديد من أعضاء الجستابو وحراس المعسكرات ، قال :

« **نعم ... إننا بالفعل نبحث عنه فلقد ارتكب العديد من الجرائم !** » .

قالت كارمن :

« **لقد سمعتم عما ارتكبه ، لكنى رأيت بعينى رأسى ما كان يفعل بعشرات النساء !** »

« **وهل عثرت على مكانه ؟!** » .

« **نعم ... وكل ما نحتاج إليه : هو سيارة جيب ، وبضعة جنود مسلحين !** »

« **أين يختبىء بالضبط هذا السفاح !** » .

« **إنه يعيش فى قرية قرب مدينة مندين تحت اسم مستعار !** »

وهكذا ... أعدت سيارة جيب امتلأت بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح ، وكانت كارمن تجلس فى المقعد المجاور للضابط الذى قاد السيارة بنفسه بسرعة قبل أن يهرب ذلك الطبيب الذى فقد إنسانيته ... وما أن دخلت السيارة إلى القرية ، واقتربت من البيت ،

حتى غادرتها كارمن كى تنزوى بعيداً بحجة أنها تخشى أن يتعرف عليها الآخرون فلا يأمنون جانبها ...

وكانت هناك خطة وضعها الضابط بسرعة ، وهى افتعال حادث أمام بيت الطبيب يدفعه إلى الخروج من البيت قبل أن يحصن نفسه أو يدافع عن نفسه ... وتمت الخطة بنجاح ، وما أن غادر الطبيب باب بيته ، حتى وجد نفسه محاطاً بالجنود من كل جانب ، وفوهات المسدسات مصوبة إليه ، وصوت الضابط البريطانى يرحب به قائلاً :

« **مرحباً دكتور فيسنشر !** » .

وأسقط فى يد الرجل ... وقال واحد من الجنود الذين كانوا يرقبون كارمن من بعيد :

« **لقد التمعت عيناها بسعادة تفوق التصور وهى ترقب الذعر فى عينى الطبيب ، والرعب الذى أصابه عندما وجد يديه وقد وضعتا بسرعة فى القيد الحديدى ! ..** »

• • •

وكالعادة ... كان لابد من نهاية لتلك المرأة الغريبة ... ولم يكن ممكناً أن تأتى النهاية إلا من خلالها ، من خلال ذلك الإحساس الرهيب بالسعادة لمجرد رؤية الآخرين وهم يتعذبون ...

فذات يوم كانت تركب السيارة مع اثنين من ضباط المخابرات البريطانية ، وهم يقومون بجولة فى شوارع المدينة بحثاً عن وجوه

معروفة لكارمن ... وفى أحد الشوارع ، نظرت كارمن إلى الناحية الأخرى من الطريق ، وما لبثت أن صاحت !

« **بنز ... دوروثيا بنز !** » .

لم تكتف كارمن بالصياح ، بل دفعت عجلة القيادة فى يد السائق إلى حيث الأفريز المقابل ، مما دفع بالسيارة إلى الصعود فوق الأفريز كى تقف على بعد خطوات من امرأة تسمرت فى مكانها فور وقوع بصرها على كارمن وقد اعتراها هلع رهيب !!

قفزت كارمن من السيارة ، كما قفز رجال المخابرات البريطانية كى يحيطوا بالمرأة التى هتفت فى فزع فور رؤيتها لكارمن هتفت بكلمة واحدة وضعت فيها كل ما تملك من رعب وخوف ، قالت :

« مورى ! » .

كانت دوروثيا بنز واحدة من حارسات معسكر ريفنسبروك ، ولقد استسلمت المرأة دون مقاومة ، تركت نفسها لأيدى الرجال الذين اقتادوها إلى السيارة ، غير أن عينيها المليئتين بالندم ، لم تفارقا وجه كارمن ...

وكان لابد وأن يلفت هذا نظر الضابط المسئول فى تلك المجموعة من رجال المخابرات ، وإذا كانت كارمن مارى مورى ، قد أدعت أنها كانت سجينة سياسية فى ذلك المعسكر ، فكيف يمكن لسجانة فى هذا المعسكر الرهيب ، أن تخاف كل هذا الخوف ، وأن ينتابها كل هذا الذعر لمجرد رؤيتها لسجينة من آلاف السجينات اللواتى شاركت فى تعذيبهن ؟! ...

وبطبيعة الحال ... فإن الضابط لم يذكر شيئاً لكارمن ... تركها تمارس عملها – وكانوا بالقطع فى حاجة إليه – بشكل طبيعى ... لكنه اهتم بشكل خاص بتلك السجانة « دوروثيا بنز » ...

مرت أيام قليلة استطاع فيها رجل المخابرات البريطانى أن ينتزع الحقيقة من السجانة التى أصبحت سجينة ... عرف منها من هى كارمن مارى مورى ، عرف حقيقة دورها فى المعسكر ، كما عرف الكثير عن وحشيتها التى مارستها ضد السجينات ... وهكذا ، بدأ الرجل يتتبع الخيط من مكان إلى مكان ، ومن مرحلة إلى أخرى ، حتى وصل إلى أول الخيط ، إلى عام ١٩٣٨ ، عندما بدأت كارمن مهمتها الحقيقية فى فرنسا !

● ● ●

وهكذا ... وعندما تجمعت كل الأدلة فى يديه ، استصدر الأمر باعتقالها ، فألقى القبض عليها ، ثم وضعت فى سجن « التونا » فى مدينة هامبورج ... وبدأ الإعداد لمحاكمتها !

وفى يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٩٤٦ ، بدأت محاكمتها مع خمسة عشر رجل وامرأة ، وجهت إليهم تهم تتراوح فيما بين التعذيب الوحشى ، والقتل ... وكانت كارمن فى البداية ، ثابتة الوجدان باردة الأعصاب ، كانت موقنة من أن أحداً لن يستطيع الوصول إلى تاريخها الحقيقى ، غير أنه مع استمرار المحاكمة ، وتضييق الخناق عليها ، بدأت أعصابها تنهار تدريجياً ... حتى صرختِ ذات مرة فى سيدة فرنسية كانت تدلى بشهادتها : « كاذبة ... أنت كاذبة ! » .

واستمرت المحاكمة ، وصدر الحكم عليها بالإعدام شنقاً !

وهكذا عادت كارمن إلى سجن التونا فى هامبورج ، كى توضع فى زنزانات المحكوم عليهن بالإعدام !

كان هذا فى ربيع عام ١٩٤٧ ..

لكن كارمن لم تستسلم ، فلقد كانت فى واقع الأمر مواطنة سويسرية ... وهكذا ... أرسلت بطلب إلى الحكومة السويسرية تطلب فيه تأجيل الحكم حتى تعاد محاكمتها مرة أخرى ... ولكن الرد جاءها بعد خمسة أيام فقط بالرفض !

● ● ●

عندما أبلغت كارمن بقرار حكومة سويسرا تمتمت :

« لن يشنقونى ... أبداً ، لن يشنقونى ! » .

وعندما أعيدت إلى الزنزانة ، كانت تبدو هادئة غاية الهدوء ، مستسلمة لقدرها تماماً ... وكانت العادة فى السجن ألا تحتفظ السجينة المحكوم عليها بالإعدام بأى من أدواتها سوى قميص نومها ... وكان الجو بارداً فى تلك الليلة ، فتوسلت كارمن للسجانة أن تأتيها بخفيها ، فالسير حافية على أرض الزنزانة مؤلم ... وقد رق قلب السجانة فعلاً ، ولم تر فى وجود الخفين ما يمكن أن يخالف التعليمات ... وجاءتها بالخفين ، وألقت عليها تحية المساء ومضت .

... ...

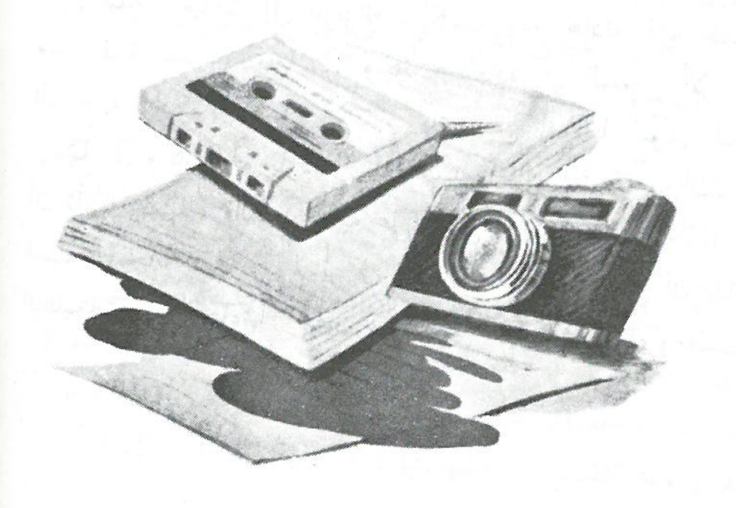
... ...

فى صباح اليوم التالى ، وعندما فتح باب الزنزانة ، كان المشهد رهيباً .

كانت كارمن ملقاة فوق الأرض تحيطها بركة من الدماء ، وكانت الصفرة ، صفرة الموت ، تعلو وجهها ... وكانت شرايين معصمها مقطوعة !

واكتشفت إدارة السجن ، أن كارمن كانت قد أعدت العدة منذ زمان طويل ، وأخفت فى أحد خفيها شفرة حلاقة ، قطعت بها شراينها ، وتركت دماءها تسيل حتى لفظت أنفاسها دون أن يشعر بها أحد ...

وربما ... ربما كانت هذه هى آخر « لذة » أحست بها كارمن . لذة الانتحار !





عروس الراين !



كان الشرق والغرب ، وفى يقينى أنه مازال ، ولأربعين عاماً كاملة ، يخشى توحيد ألمانيا ... ومن الطريف ، أنه فى بداية صعود الزعيم السوفيتى ميخائيل جورباتشوف إلى القمة ، وتوليه السلطة فى بلاده ، وقبل سنوات قليلة من الآن ، من الطريف أنه صرح ذات مرة ، وكان الحديث جديداً حول توحيد ألمانيا ، بقوله : « إننى لو وافقت على توحيد ألمانيا ، فلسوف يخرج جنرال من الجيش الأحمر ، كى يلقى بى بعيداً ويجلس مكانى ! »

وعندما نشر هذا الفصل منذ حوالى عام فقط ، كان « توحيد » ألمانيا حلم دونه « خرط القتات » كما يقولون ... لكنه الآن – فى منتصف ١٩٩٠ – وأثناء اعداد هذا الكتاب للطبع ، أصبح حقيقة مذهلة بحق !!

وعلى كل ، فإن التاريخ يقول : إن أرض الراين ، وطوال تاريخها ، لم تشهد هدوءاً كهذا

الذى شهدته منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم ... كان ألمانيا دائماً ، هى البعبع الذى يخشاه «الجميع» ... وقبل ظهور القوة الأمريكية كقوة عالمية مسيطرة ، وعندما كانت الامبراوطوريات تذكر أساساً فى دول أوربا ... كانت ألمانيا هى الخصم العنيد الذى يهابه الجميع ويعملون له ألف حساب .

وبكل تأكيد ، فليس صحيحاً تماماً أن آلة الحرب الألمانية فقط هى ذلك الوحش الذى يخشاه الجيران ... وربما كان أقرب إلى الصواب أن تقول : أن الإنسان الألمانى بما جبل عليه من إحساس غامر بالتفوق على الآخرين ، وقدرة فذة على الابتكار والاحتمال ... هو ما يخشاه الآخرون قبل أى شىء آخر .

وعندما وقعت فى يدى قصة هذه الفتاة النصف ألمانية ، المؤمنة بالنازية إيماناً مذهلاً ... أدهشتنى جسارتها وجرأتها وإيمانها بالنصر فى الوقت الذى كانت فيه ألمانيا تركع أمام جحافل الجيوش السوفيتية والأمريكية والإنجليزية والفرنسية التى أطبقت عليها من الشرق والغرب معاً ... فتاة غريبة كانت تملك من القوة والثقة ، ما جعلها رغم كل ما ارتكبت من جرائم ، تحظى باحترام أعدائها وقضاتها ... وتنجو من الوقوف أمام فرقة ضرب النار !

• • •

يرى الكثيرون ، أن « سيبيل ديكلور » – وهذا هو اسم الفتاة –

واحدة من أعظم جاسوسات القرن العشرين ، إن لم تكن أعظمهن على الاطلاق ... وبصرف النظر عما قامت به أثناء الحرب العالمية الثانية مما جعل ملفاتها فى المخابرات الأمريكية والإنجليزية والفرنسية تتضخم إلى حد مذهل ، وتدفع بالرجال – بعد هزيمة ألمانيا – إلى البحث عنها بأى ثمن ... فإن آخر عملياتها كانت فى واقع الأمر تفوق الخيال فى جسارتها واكتمالها ... تلك العملية التى بدأت فى اليوم الثالث عشر من مارس عام ١٩٤٥ .

كانت كل المعلومات تقول : إن سيبيل ديكلور ، التى لم تتجاوز الثلاثين من عمرها ، واحدة من الجواسيس الذين يتميزون بقدرات فذة ، وعبقرية تجعلهم قادرين على إقناع الآخرين بما يدعونه !

فى تلك الأيام ، كان الحلفاء قد استولوا على أجزاء كبيرة من ألمانيا ... من الشرق توغل السوفييت فى الأراضى الألمانية توغلاً دفع بالغرب إلى الإسراع فى احتلال جزء من برلين بالمظلات قبل أن تقع كلها تحت سيطرة الجيش الأحمر ... لكنهم كانوا – بالكاد – قد عبروا الحدود الفرنسية إلى الأراضى الألمانية ... وهناك ، حيث تقع مدينة كولونيا – أو كولون – على الضفة الغربية لنهر الراين ، كان الجيش الأمريكى يطارد الفيلق الألمانى الذى كان يتقهقر يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ... حتى تحولت كولونيا إلى أطلال وخرائب أثناء الزحف والانسحاب ، واستطاع الجيش الألمانى أن يعبر النهر شرقاً ، وأن يفرض الحصار الذى كان مفروضاً عليه ... وأصبح الراين الآن – يفصل بين القوات الأمريكية والقوات الألمانية ... وعلى طول امتداد النهر ، كان الجنود يستطيعون مشاهدة عشرات القوارب التى

تنتقل من ضفة إلى ضفة حاملة أعداداً هائلة من اللاجئين والهاربين وبعض الجواسيس بطبيعة الحال !

ولقد كان هذا يشكل إزعاجاً شديداً لكل أجهزة الأمن المصاحبة للجيوش بطبيعة الحال ... غير أن أحداً لم يكن يستطيع أن يمنع لاجئاً من الهرب من عذابات النازى ... كما أن أحداً لم يكن يستطيع ألا يستقبل الأسرى الفرنسيين والبلجيك وأبناء دول أوربا الذين استطاعوا الفرار من معسكرات النازى الرهيبة ... ولكن ، كان ثمة مشكلة تؤرق الجميع ، فكيف يمكن فرز هؤلاء من أولئك ، كيف يمكن التعرف ، وسط ألوف المشردين على هؤلاء الذين كانت المخابرات الألمانية ، فى إصرار وعناد عجيبين – تدفعهم دفعاً ، وبكل السبل والطرق ، وسط الآخرين ، كى يصبحوا عيوناً لها وسط الجيوش المتقدمة على أمل أن يمدوها بما يستطيعون به أن يقاوموا الزحف العنيف ، وأن يستعدوا لشن هجوم مضاد !

... ...

... ...

على الشاطىء الغربى لنهر الراين ، عند كولونيا ، استطاعت مجموعة من رجال المخابرات الأمريكية أن ينتشلوا فتاة كانت مشرفة على الموت بعد أن عبرت النهر سباحة ... كان هذا فى اليوم الثالث عشر من مارس عام ١٩٤٥ ، وكان الجود بارداً ومياه النهر تكاد أن تكون متجمدة ، وعبور النهر سباحة ضرب من الجنون ... غير أن الفتاة التى بدت للرجال مليحة ذات جمال خاص ، سقطت من

الاعياء فوق الشاطىء وقد تملكها الفزع خوفاً من مطارديها . كما كانت الفرحة تجتاحها فى نفس الوقت ، لأنها وقعت فى أيدى الأمريكيين !

كان كل ما ترتديه هذه الفتاة ، قميصاً صوفياً وبنطلوناً ... وكانت بالطبع ترتجف وقد تجمدت أطرافها ... بل أن الطبيب الذى هرع لإسعافها بالملابس الجافة والبطاطين والقهوة الساخنة ، دهش لقدرة جسدها الرقيق هذا على تحمل برودة مياه النهر ، واعتبر أن وصولها سالمة إلى الشاطىء ، ليس سوى معجزة بكل المقاييس !

وكالعادة ، فبعد أن أسعفت وجرت الدماء فى عروقها من جديد ، كان لابد من استجوابها !

هكذا جرى العرف ، وهذا ما كان لابد من حدوثه ... لكن الأمر بدا للجميع فى تلك الليلة ، عملاً روتينياً لا أكثر ولا أقل ، فلقد كانت علامات الفزع ، وبريق الفرحة يجتاحان ملامح الفتاة اجتياحاً لا سبيل إلى الشك فيه ... ولم يكن ممكناً لإنسان ، مهما كانت خبرته أو قدراته ، عبور مياه النهر سباحة فى مياه شبه متجمدة ، إلا إذا كان الدافع أقوى لديه من الموت نفسه !

عندما هدأت الفتاة ، وسرى الشراب الساخن فى جسدها المرتجف ، استطاعت أخيراً أن تتكلم !

قالت أنها فرنسية ، وأن اسمها « هيلواز بوكونفيل » ... وأنها ولدت فى مقاطعة بريتانى فى غرب فرنسا ، وأن الألمان أخذوها فى عام ١٩٤٢ كى تعمل فى أحد المصانع الألمانية ، وأنها ظلت هناك

حتى حرر الروس تلك المنطقة ، واستطاعت الفرار من المعسكر الروسى ، وقطعت الطريق حتى وصلت إلى الشاطىء الشرق للراين ... وهناك ، كان الإعياء قد أخذ منها كل مأخذ ، حاولت الصعود إلى أحد القوارب التى كانت تعبر النهر إلى حيث القوات الألمانية والسوفيتية ، ولأنها أيضاً لم تكن تملك مالاً ... وعندما أحست بقرب المطاردون لها ، لم يكن أمامها سوى المجازفة ... ألقت بنفسها فى المياه رغم برودتها القاتلة ... وعبرت النهر سباحة حتى وصلت إلى الشاطىء .

لم يكن هناك جديد فيما قالته هيلواز بوكونفيل ... لقد كان ما قصته هو نفس ما قاله الكثيرون غيرها من اللاجئين ... وفوق هذا ، كانت القصة بسيطة ومقنعة ومحتملة الحدوث ... ولكن ...

وكما يحدث عادة فى مثل تلك الأحوال ، كان على الرجال أن يمحصوا الأمر ، وأن يزنوا احتمالات الصحة من التلفيق فى القصة التى روتها الفتاة .

وفى الوقت الذى كانت مدموازيل هيلواز بوكونفيل تتوسل كى ترسلها القوات الأمريكية إلى أهلها وذويها فى مقاطعة بريتانى الفرنسية ... كان أحد الرجال يغمغم محدثاً زميل له بأن انفه تشم فى حكاية الفتاة رائحة التلفيق واضحة !

لقد أخرجت الفتاة من مياه النهر فعلاً ، وكانت ترتجف حقاً ، ولكن ... أن يقول الأطباء أن عبور النهر فى مياه شبه متجمدة أمر يقرب من المعجزة ، فإن احتمالاً آخر برز إلى الأذهان ... فماذا لو أن

الفتاة كانت قد عبرت النهر فى قارب من تلك القوارب التى تعمل فى الليل أكثر مما تعمل فى النهار ... وماذا لو أنها قفزت من القارب فى المياه ، قبل الوصول إلى الشاطىء ببضعة عشرات من الأمتار ؟!

كان الشك وجيهاً ... وكان أيضاً قابلاً للاحتمال ...

وهكذا ، لم يكن أمام الضابط سوى أن يعود إلى الطبيب الذى استقبل هيلواز فور إخراجها من المياه ... ولقد سأله الطبيب الذى كان قد بذل جهداً كبيراً فى تلك الليلة . وكان يطمع فى ساعة أو ساعتين من النوم :

« ما الذى تريده بالله عليك ؟! » .

« أريد أن أعرف على وجه اليقين ، إن كان ممكناً لفتاة مثل تلك الفتاة ، أن تعبر النهر فى مياه شبه متجمدة فعلاً ؟! » .

بالنسبة للطبيب كان السؤال سخيفاً ، قال :

« ولكنها عبرت النهر فعلاً ! » .

« هل هناك احتمال أن يحدث هذا ؟! » .

« ليست لدى إجابة قاطعة ، ولكن ... ما الذى يدور فى ذهنك ؟! » .

لم يكن ممكناً أن يبوح الضابط بما فى ذهنه ، ولذلك فلقد قال :

« لا شىء أكثر من هذا السؤال ! » .

لزم الطبيب الصمت لثوانى ثم قال :

« استمع إلىّ جيداً ، إنه أمر بالغ الصعوبة ، لكن الجسد الإنسانى يملك من القدرات ما لم يكتشفه العلم بعد ! » .

« إذن فمن الممكن أن تعبر النهر فى مثل هذا الجو فعلاً ؟! » .

« إنه ممكن ، لكنه فى نفس الوقت صعب للغاية ! » .

هم الضابط بالحديث ، لكن الطبيب أردف :

« ليس لدى ما أقول أكثر من هذا ، فدعنى كى أغفو لساعة أو ساعتين ! » .

... ...

... ...

تلك شكوك كان من الضرورى أن تدور فى أذهان الرجال ... ولم يكن منطقياً أن يصلوا إلى قرار نهائى فى ليلة واحدة ... غير أن شيئاً جد على الأمر جعل أمواج الشك تطفو على سطح الواقع الماثل أمامهم ... فعندما عادت الضابطة المسئولة عن اللاجئات حاملة ملابس الفتاة بعد أن جففت ... كانت تحمل بطارية صغيرة ذات عدستين ، إحداها حمراء ، والأخرى بيضاء !

دهش الرجال لوجود البطارية لكن مدموازيل هيلواز لم يطرف لها جفن ولم تنكر أنها تملك البطارية ، وقبل أن يوجه إليها سؤال صاحت :

« هذه بطاريتى ... لقد اشتريتها عندما قررت عبور النهر سباحة ! » .

ران الصمت على الجميع فواجهته كما واجهت نظرات الشك فى العيون ثم قالت فى سخرية :

« ألا يحتاج من يعبر النهر سباحة فى جوف الليل ، إلى بطارية تهديه الطريق عندما يصل إلى الشاطىء ؟! » .

بدأ حديث الفتاة منطقياً إلى أقصى درجة ... غير أن للمنطق فى هذا العالم وجوهاً كثيرة ... بل ربما كان المنطق دليلاً على أن صاحبه يخفى قصة محبوكة ... لهذا ، وكأمر روتينى بحت ، كان لابد من إعادة تفتيش الفتاة مرة أخرى .

ورغم أن التى قامت بالتفتيش ضابطة من المشرفات على اللاجئات ، إلا أن رجل الأمن الذى كان يدير التحقيق مع هيلواز بوكونفيل ، أبى أن يغادر الغرفة ، بل أنه ، بجسارة المحترف الذى تفوق رائحة الشم عنده قدرتها عند الآخرين ، تقدم لمساعدة الضابطة فى عملها ، كى يسفر التفتيش عن العثور على مسدس صغير ملفوف بالقماش وملتصق بجسد الفتاة بحيث يصعب العثور عليه ... وعندما ووجهت الفتاة بالمسدس ، كان منطقها أيضاً سليماً فى الاحتفاظ به ، وإخفائه ... قالت :

« ماذا تريدون من فتاة مثلى هاربة من جحيم المعسكرات النازية إلى جحيم الجيش الأحمر ؟! » .

لم يرد الضابط بكلمة ، فقط ، كانت نظرات الشك فى عينيه ، هى التى تواجه الفتاة ، فعادت إلى الصياح :

« هل تعرف ما الذى فعله الروس بالفتيات عندما اجتاحوا القرى فى الشرق ؟! » .

لزم الضابط الصمت ، فعادت تقول فى تحد :

« لقد كان الروس أكثر كرماً منكم بالرغم من أنهم ... ... » .

أمكست هيلواز عن الحديث ولم تكمل الجملة ... نظرت إلى الرجل الذى كان جالساً أمامها ، وتصاعد الدمع إلى عينيها ، ثم قالت بصوت منكسر :

« ألا ترى أنه من الضرورى لفتاة مثلى أن تتسلح بمسدس يحميها من جندى جائع لجسد أنثى ؟! » .

ابتسم المحقق ساخراً فصرخت فى وجهه :

« حتى ولو كان هذا الجندى أمريكياً ! » .

... ...

... ...

أدرك الضابط أنه أمام حالة من تلك الحالات المستعصية ... وبالنسبة إليه ، كانت كفتا الميزان فيما بين الصدق والتلفيق متعادلتين ... كان كل ما قالته الفتاة يبدو منطقياً وقابلاً للحدوث تماماً ... لكنه ، على الوجه الآخر ، كان يعانى من شك لا يدرى مصدره .

وهكذا ترك الغرفة التى احتجزت فيها الآنسة هيلواز تحت حراسة مشددة ، وعاد إلى زملائه .

ولم يستغرق الأمر طويلاً بين الرجال ، فلقد استقر رأيهم بعد مناقشة دامت الدقائق ، أن يعرضوا الأمر على الرؤساء كى يروا فيه رأياً !!

• • •

وهكذا ... ورغم أن الساعة كانت قد جاوزت منتصف الليل بساعتين كاملتين ... إلا أن الفتاة وضعت فى سيارة عسكرية تحت حراسة مشددة إلى حيث يقيم دبلوماسى سابق كان يعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية ، وهو شاب مشهود له بالكفاءة ، يجيد ثمانى لغات من بينها الألمانية والفرنسية إجادة كاملة ... وكان اسم هذا الشاب هو « فنتون موران » ... وما أن وصلت هيلواز بوكونفيل إلى حيث يقيم ، حتى أيقظوه من النوم !

استيقظ السيد موران من النوم متوتراً ، وعندما سمع القصة ، لم ير فى الأمر ما يدعو إلى العجلة ، أو إلى إيقاظه فى مثل هذا الوقت من الليل ... غير أن الرجال كانوا قد أتوا بها فعلاً ، ولم يكن أمامه سوى النهوض من الفراش ... وما أن دلف إلى الغرفة التى وضعت فيها الفتاة ، حتى طلب لها بعضاً من القهوة الساخنة وكأساً من الشراب يدفع بالحرارة إلى جسدها المرتجف ... كان الإعياء بادياً عليها تماماً ، وكانت كالذاهلة تطوف بعينيها فيما حولها فى دهشة ... وما أن انتهت من احتساء القهوة وتجرع الشراب ، حتى صاحت فيه والدمع يتصاعد إلى عينيها :

« والآن ... ما الذى تريد أن تعرفه منى بالضبط ؟! » .

نظر إليها فنتون موران نظرة حانية شجعتها على الصياح مرة أخرى :

« أنا لست جاسوسة ... صدقنى يا سيدى فلقد عانيت الأمرين وآن لى الآن أن أستريح ! »

« سوف تستريحين دون شك ! »

« هل يستطيع خيالك أن يتصور مدى العذاب الذى عانيته منذ عام ١٩٤٢ حتى الآن ؟! »

« أى عذاب هذا ؟! »

كان موران بارداً ، وكان هادئاً ، وكان سؤاله مع البرود والهدوء مستفزاً ، فصرخت الفتاة !

« إنك بالقطع تريد سماع القصة للمرة الثانية ! » .

« كيف عرفت بهذا الأمر ؟! » .

« لأن الروس سمعوا قصتى عشرين مرة ! » .

« الروس ؟! » .

« نعم ... فعندما دخلوا المعسكر ، انتقوا بعضا منا ، خاصة الفرنسيات أمثالى ، وراحوا يسألوهن فيجبن ، وظلوا يلحفون فى السؤال كى يسمعوا نفس الإجابات لعشرين مرة ! »

اختنق صوت الفتاة وانهمر الدمع من عينيها ، ران الصمت لثوانى قالت بعدها :

« هل أقص عليك الآن قصتى ؟! » .

« نعم ! » .

وبدأت هيلواز بوكونفيل ، فى الحديث !

... ...

... ...

ظلت تحكى نفس ما قالته من قبل بدقة بالغة ، لم يستفزها هدوء فنتون ولا برودة ، لم تخطىء فى واقعة أو حادثة ، بدت وكأنها تحكى شريطاً سينمائياً شاهدته من قبل ... عندما وصلت إلى تلك الأيام التى اجتاح فيها السوفييت شرق ألمانيا ... توقفت عن الحديث وانهمر دمعها مدراراً وهى تسأله :

« هل تستطيع أن تتخيل ما الذى يريده جندى يواجه الموت كل يوم ألف مرة ، عندما يلتقى بفتاة مثلى ؟! » .

« لقد سمعت بعض القصص حول هذا الموضوع ! » .

« اعترف أننى اضطررت لمجاملة جندى سوفيتى حتى يمكننى من الفرار ! » .

غمغم السيد موران :

« هذه هى الحرب على كل حال ! » .

« أنهم يطاردون الفتيات فى كل مكان ، ولا هم لهم سوى إشباع رجولتهم ! » .

« متى وصلت إلى الشاطىء الشرقى للراين ؟! » .

عادت هيلواز تقص من جديد ، راحت تحكى قصة اللاجئين

وقسوة الألمان ، قصت عليه كيف ظلت لأيام ثلاثة بلا طعام ، وكيف عثر عليها جندى ألمانى وهى تبحث فى صندوق قمامة عما تتبلغ به ... انهارت هيلواز الآن وراحت تبكى بحرقة تذيب الحديد ، ثم قالت :

« والآن جاء دور الأمريكيين ، جاء دوركم أيها السيد ، أليس كذلك ؟! » .

« إنك فى حاجة إلى الراحة ! » .

هكذا قال السيد فنتون ثم نهض دون كلمة أخرى ، وغادر الغرفة !

ولم تكن الفتاة تعرف ، ما الذى كان يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات !





عندما غادر السيد فنتون موران المدموازيل هيلواز بوكونفيل ، كانت كل رغبة لديه فى النوم ، قد تبددت تماماً ... كما كانت الأفكار تتصارع فى ذهنه بعنف بالغ ، بدت له الفتاة صادقة كل الصدق فى كل ما قالته ، أحس بالضعف أمام دموعها ، والإعجاب إزاء آراءها ، لكن الشكوك فى داخله كانت تحوم حول اسم فتاة من تلك الأسماء التى حيرته طويلاً من قبل ، حاول أن يتذكر هذا الاسم دون جدوى ، وهو لا يدرى لم كان ، طوال جلسته مع هيلواز ، يحاول أن يتذكر اسم تلك الفتاة ... وعلى كل ، فلم يكن أمامه من طريق ، سوى العودة إلى أوراقه وملفاته !

عندما جلس السيد موران إلى ملفاته وأوراقه ، لم يكن يدرى عمن يبحث بالتحديد ، كان ثمة صورة تبدو له غير واضحة فى ذهنه ، حتى إذا اقترب النهار ، وقع ملف فى يده ، فأدرك على الفور ، أن هذا هو بغيته ... وكان الملف يحمل اسم « سيبيل ديكلور » !!

● ● ●

كان الأمر بالنسبة إليه مفاجأة دون شك ، فلقد وجد أن الأوصاف الموجودة فى الملف ، تنطبق تماماً على مدموازيل هيلواز بوكونفيل ... وكانت الأوراق التى بين يديه ، تتحدث عن واحدة من أخطر جواسيس النازى وعملائه على طول نهر الراين بالذات ، كما كان لها نشاطها فى فرنسا – أبان الاحتلال الألمانى لها – ولوكسمبورج والالزاس ... ولم تكن خطورتها فى قدرتها العجيبة على اقتناص المعلومات فقط ، ولكن فى شراستها وإيمانها الشديد بالنازية ... كان معروفاً عن « سيبيل ديكلور » أنها لا تتورع ، بل لا تتردد فى اغتيال كل من يقف فى طريقها أو يعرقل خطواتها ... مع تلك الأوراق التى يحويها ذلك الملف المكتنز ... كان ثمة صورة قديمة لسيبيل ... كانت صورة مختلفة لا تؤكد تطابق الشكل الذى ربما تغير بفعل السن أو قصة الشعر ... لكنها بالقطع كانت ذات فائدة عظيمة فى الخطة التى راح فنتون موران يغزلها فى ذهنه !

... ...

... ...

كان معروفاً عن سيبيل أنها أقرب الأعوان لهر « فيرنر كرامر » ، الذى كان يشغل منصب رئيس المخابرات التابعة لفرق العاصفة الألمانية التى اشتهرت أبان الحرب العالمية الثانية بجسارة أفرادها وجرأتهم الشديدة على اقتحام المصاعب وتحقيق الأهداف مهما كانت العقبات ! ... كما كان فيرنركرامر قائداً لفرقة انتحارية خاصة ، كانت مكلفة بتدمير الأهداف والمواقع الاستراتيجية خلف خطوط

الحلفاء ... وعلى كل ، فإن الأوراق كانت تقول ، أن سيبيل ديكلور لم تكن فقط واحدة من أخلص أعوانه ، وإنما كانت خليلته أيضاً !

وحتى مطلع النهار كان فنتون ينعش ذاكراته بتقليب الأوراق والملفات كلما أعوزته معلومة ... وجد أن كرامر كان قد حصل على وسام قلده إياه الفوهور بنفسه – اعترافاً بانجازاته فى تدمير مصالح الحلفاء ، واختطاف الشخصيات التى كان الرايخ الثالث فى حاجة لاختطافها ، إما لإنزال العقاب بها ، أو الاستفادة من علمها !!

لوقت طويل ، ولسنوات ... كان كرامر شوكة فى جانب الحلفاء ... كان يرسل رجاله عبر الراين فى ثياب الصيادين ، كما كان يسقطهم بالمظلات خلف الخطوط ... وحتى عندما بدأت ألمانيا فى الانهيار ، ظل يواصل جهوده التى أرقت الحلفاء ، فلقد كان مؤمناً أن ثمة هجوماً مضاداً سوف تشنه القوات الألمانية ضد الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية والسوفيتية ، كى تعود ألمانيا إلى السيادة من جديد !

وهكذا ، ما كاد ضوء النهار أن ينبلج ، حتى كان فنتون موران جاهزاً للقاء الفتاة ... اجتمع بالرجال لوضع خطة للاستجواب ... وإذا كانت الفتاة التى تدعى أن اسمها هيلواز ديكلور هى بنفسها سيبيل ديكلور ، فإنهم بواسطتها ، سيستطيعون اقتناص فيرنر كرامر ... كان الأمر بالقطع فى حاجة إلى تفكير وإلى خطة محكمة وأساليب لابد من استعمالها حتى يدفعوا الفتاة إلى الاعتراف بحقيقة أمرها !

لم يكن الأمر سهلاً بطبيعة الحال – هكذا اتفق الرجال مع بعضهم البعض – فإن فتاة على هذا القدر من التدريب والتجربة ، لن يكون اصطيادها أمراً سهلاً .

فى التاسعة صباحاً بدأ استجواب الفتاة ... بدأ الأمر كالعادة بحوار إدارة واحد من الرجال الذين احترفوا استجواب العملاء والجواسيس ، ساعة بعد ساعة ، ولثمان وأربعين ساعة كاملة ، أصرت الفتاة على أن اسمها هو هيلواز بوكونفيل ... لم تفلح معها كل الطرق والسبل والوسائل ، لا التهديد ولا الوعيد ولا الترغيب كان لها أثر فى إصرارها على موقفها ، تعب الرجال الذين تناوبوا على استجوابها ، لكنها لم تتعب من تكرار نفس القصة ونفس الكلام ... لم تخطىء مرة واحدة ، لم يزل لسانها بخطأ واحد رغم التعب والإجهاد وقلة النوم ... حتى إذا حانت لحظة ظن فيها مستجوبوها أنها على شفا الانهيار ، صاحت فيهم :

« لم لا تصدقون إنى أكره النازية والنازيين ؟! » .

« هذا لو انك كنت هيلواز بوكونفيل فعلاً ! » .

« فلم لا تتحققون بأنفسكم من صدق كلامى ! »

« كيف ؟! » .

ابتسمت ساخرة وهى تقول :

« ابعثوا برسول إلى بريتانى كى يتحقق مما أقول ! »

كان الرد ، بالنسبة للسيد موران ، يحمل أكثر من معنى ، راح ينظر إليها متعجباً ، عادت تقول :

« سوف تجدون أهلى ومعارفى هناك ، وفى سجلات الكنيسة ، ستجدون اسمى وتاريخ ميلادى ! » .

بدت الفتاة على درجة من الذكاء تبدو مذهلة ... فإذا كانت هى بالفعل سيبيل ، فلابد أن الفتاة التى كانت تحمل اسم « هيلواز بوكونفيل » قد ودعت الحياة منذ زمن بعيد ... أدرك فنتون موران أنه أمام فتاة من نوع خاص تماماً ، ولابد أن الألمان قد أخذوا « هيلواز » الحقيقية من بريتانى فى عام ١٩٤٢ بالفعل ، ولابد أن أهل المدينة سوف يتذكرونها ، ولابد أن يكون تاريخ ميلادها قد دون فى سجلات الكنيسة بالفعل !!

وهكذا انتهت الرحلة ، رحلة الاستجواب ، إلى لا شىء !

وهكذا أدرك القائمون على أمر الاستجواب أنهم فشلوا وأن حيلهم كلها لم تجد شيئاً مع الفتاة ... قالوا جميعاً نفس الكلام ، قالوا أنها ماهرة ، وقالوا أيضاً أنها باهرة ... أن الخبرة تؤكد حدساً أن الفتاة ليست هى هيلواز بوكونفيل ، وإنما هى سيبيل ديكلور ... ولكن ، ما السبيل إلى الإيقاع بها وانتزاع اعتراف منها بحقيقة أمرها ؟!

بدت لهم كل الطرق مسدودة ، فهذه الفتاة مدربة على أرفع مستوى من التدريب ... ولا سبيل إلى انتزاع اعترافها إلا بمعجزة ... ولقد حدث المعجزة ، تمثلت فى مصادفة بالغة الغرابة !

• • •

فى اليوم الثالث ، تصادف أن مر بالموقع رجل من رجال المخابرات

الأمريكيين ... كان فى مهمة خاصة ، ولابد له من العودة إلى ما خلف الخطوط حيث القيادة ... ولأن المعركة كانت حامية الوطيس ، ولأنه كان متعباً ، فلقد قرر أن يبيت ليلتـه تلك فى كولونيا ... واستمع الرجل من زملائه إلى قصة هذه الفتاة ... كان أمريكيا من أصل ألمانى ، وبالتالى ، فلقد كان يتقن الألمانية كأحد أبنائها ... فجأة ، قال الرجل أن به رغبة فى رؤية هذه الفتاة !

بدا الأمر للجميع ، وكأنه نوع من حب الاستطلاع ، وفى نفس الوقت ، لم يكن هناك ما يمنع زميلا من إلقاء نظرة على عميل على درجة عالية من التدريب .... لكنه ، وقبل أن ينهض إلى حيث كانت الفتاة لاتزال جالسة فى غرفة الاستجواب ، سأل فنتون موران سؤالاً :

« هل كانت علاقة سيبيل ديكلور بفيرنركرامر مجرد علاقة بين رجل مخابرات وعميل من عملائه ؟! »

جاءه الرد فوراً من فنتون ، قال :

« كلا ... كانت خليلته ! » .

« أهذا كل ما فى الأمر ؟! » .

« لا ... إن المعلومات التى لدينا تقول أن كرامر اتخذ لنفسه عدداً لا بأس به من الخليلات ، وأغلبهن من الفتيات والنساء اللواتى قبلن العمل معه إيماناً أو خوفاً أو إعجاباً ... لكن المعلومات تؤكد شيئاً على قدر لا بأس به من الأهمية ، وهو أن سيبيل كانت أقربهن إلى قلبه ! » .

« ألم يكن لها محبون غيره ؟! » .

« إطلاقاً ... الذى نعرفه أن سيبيل مفتونة به . وكانت تغار عليه... وكثيراً ما سُمعت صرخاتهما وهما يتشاجران حول علاقته بهذه الفتاة أو تلك ! » .

وكان هذا كل ما يريد الزائر الغامض ، فسرعان ما نهض طالباً رؤية الفتاة على الفور !! .

• • •

عندما دخل هذا الرجل الغامض على مدموازيل هيلواز بركونفيل فى تلك الليلة ... لم يكن الأمر بالنسبة إليها غريباً ... فما أن رأته ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة سألته فى تبرم :

« من أين تريدنى أن أبدأ ! » .

أخذ ينظر إليها نظرة من يعرفها جيداً ، لم يرد ولم يتفوه بكلمة ، فقط راح يحدجها وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وكأنه يشاهد مسرحية هزلية ... فعادت تصيح وقد انتابتها نوبة من تلك النوبات العصبية :

« لماذا لا تريدون أن تصدقونى ، أنا لست ... ... » .

قاطعها فى حسم قائلاً بالألمانية :

« إنت لست سوى عميلة حقيرة لفيرنر كرامر ! » .

« اخرس ! » .

قالتها الفتاة دون وعى منها ، قالتها دون أن تعلم ، أنها بهذه الكلمة

فقط قد سقطت فى الفخ الذى نصبه الرجل لها ...

بداية ، كانت هذه هى المرة الأولى التى يأتى فيها ذكر كرامر أمامها ، فكيف عرفته ؟! .. ثم ، لقد فهمت اللهجة التى تحدث بها الرجل وكانت لهجة تنتمى إلى أرياف ألمانيا ... وعلى كل ، فلم يعطها الرجل فرصة ، بل قال فى تأفف :

« أنت تعلمين هذه الحقيقة جيداً ، وتعلمين أيضاً أن خليلاته ... ... » .

قاطعه وقد تحولت إلى لبؤة شرسة :

« ليس لفيرنر خليلات ، أنه يحبنى ! » .

وهكذا ، وللمرة الثانية ، سقطت « سيبيل ديكلور » ، كان الحوار بالألمانية مما دفعها إلى الإحساس بالألفة مع اللغة والموضوع معاً ، فنسيت نفسها ، وأقرت بحقيقتها ، وعندما أفاقت من غضبها ، كانت قد اكتشفت أنها استدرجت ، وأنها أقرت !!

... ...

... ...

كان الرجل الغامض على علم بقاعدة تكاد أن تكون ثابتة ، بالنسبة لهاته الفتيات اللواتى يحترفن التجسس ... هذه القاعدة ، هى أنهن يحترمن علاقاتهن العاطفية احتراماً بالغاً ... بل أن المساس بهذه الناحية الخاصة من حياتهن ، كانت كفيلة بأن تحولهن إلى وحوش كاسرة !

وعندما قالت سيبيل ديكلور ما قالت ، كانت دقائق جد قليلة قد انقضت منذ دخل هذا الرجل إلى الغرفة ، لذلك ، فلقد غادر الغرفة دون كلمة أخرى وتركها وحدها ... وكان هذا ضمن الخطة التى وضعها ... وعندما عاد إلى الرجال كانت دهشتهم عظيمة لعودته بمثل هذه السرعة ، وعندما تطلعوا نحوه متسائلين ... لم يقل أكثر من كلمتين :

« **لقد اعترفت !** » .

● ● ●

جاء الدور مرة أخرى على فنتون موران الذى هرع إلى الملف الخاص بسيبيل ديكلور ، ثم حمله معه إلى حيث كانت الغرفة التى احتجزت فيها ... كان موران يعلم أن عليه أن يجهز عليها تماماً ... ولذلك ، فما أن دخل الغرفة حتى سحب مقعداً وجلس أمامها وقد رسم على شفتيه ابتسامة رقيقة ... وعندما تحدث ، كان صوته هادئاً ، ومنطقة معتدلاً ... وفى الوقت الذى كانت فيه سيبيل ديكلور تجلس شاحبة شحوباً عظيماً ، كان عليه الآن أن يضع نفسه فى مكانة الصديق ... قال :

« استمعى إلىّ جيداً ... إننا نعرف منذ ليلة وصولك أنك سيبيل ديكلور ! » » .

وكانت هذه هى المرة الأولى أيضاً ، التى تستمع فيها إلى اسمها الحقيقى يتردد فى هذا المكان ، فازداد شحوب وجهها ، عندما أمسك فنتون بالملف فى يده ملوحاً به :

« هذا ملف خاص بك ، فنحن نعرف كل شىء عنك ... وفى الملف ، صورة لك قبل بضعة سنين ! » .

فتح موران الملف وأخرج منه الصورة وقدمها إليها .

ما أن وقعت عينا الفتاة على الصورة حتى اضطربت اضطرابا شديداً ، لكنها غمغمت :

« ليست هذه صورتى ! » .

« لقد تغيرت كثيراً منذ أن التقطت لك فى بلجيكا ! » .

وكانت هذه أيضاً ، المرة الأولى التى يذكر فيها موران شيئاً عن مسقط رأسها ، فقالت :

« إذن ... فلقد استطعتم التغلب على ! » .

« إننا لا ننظر إلى الأمر من هذه الزاوية ! » .

فى استخفاف من لم يعد يأبه بما يحدث تساءلت :

« متى أقف أمام جماعة ضرب النار ؟! » .

بدت الدهشة على فنتون وهو يتساءل :

« من الذى تحدث عن جماعة ضرب النار ؟! » .

« لا تسخر منى ... فأنا لا أهاب الموت ! »

« ونحن واثقون من هذا تماماً ! » .

قال هذا وهو يفتح الملف مقلباً الأوراق كمن يبحث عن شىء بعينه مردفاً :

« إننا نعرف كل شىء عنك وعن كرامر ... وكثيرا ما سمع رجالنا أصواتكما وأنتما تتشاجران من أجل هذا الفتاة أو تلك ! »

على نفس الوتر كان فنتون يعزف فصاحت :

« هذا غير صحيح ! » .

تجاهل صيحتها مكملاً :

« وبطبيعة الحال فنحن لا يمكن أن نفكر فى جماعة ضرب النار ، إلا إذا دفعتينا إلى هذا دفعاً ! »

همت بالحديث ، فأخرج ورقة من الملف قائلا :

« إنك أجمل من أن تقفى أمام جماعة ضرب النار ! »

كانت قد استعادت رباطة جأشها الآن فمالت نحوه متحدية :

« استمع إلى جيداً أيها السيد ، أنا أعرف تماما ما الذى تضمرونه لى ! » .

نضمره لك ؟! » .

« نعم ... إنكم تريدون التشهير بى ... تريدون محاكمتى كمتعاونة مع العدو ، كما أنكم تطمعون أن تقودونى فى طرقات بلدتى ، أو فى شوارع باريس حليقة الرأس كالخائنات !! » » .

راح فنتون ينظر إليها فى دهشة ، لم يتصور ، بعد كل هذا الذى حدث . أن تعود الفتاة إلى قصتها الملفقة مرة أخرى ، وأن تستعيد سيطرتها على نفسها بهذه السرعة ... ومن الملف الذى بين يديه كان

يعلم أن سيبيل ليست فرنسية ، كما أنها بالتالى ليست من مقاطعة بريتانى ... فهى من أب بلجيكى وأم ألمانية ... وعندما احتل الألمان بلجيكا ، كان أمراً طبيعياً أن نتعامل الأم التى كانت تدير مقهى فى بلدة اسمها « بروج » ، مع بنى جلدتها من الجنود الضباط الالمان مما آثار استياء البلجيكيين .

لزم فنتون الصمت تماماً وكان موقناً من تأثير هذا عليها ... فى الأوراق التى بين يديه قصتها كاملة فلقد كانت تساعد أمها فى إدارة المقهى عندما راح رجال الجستابر يترددون عليها لالتقاط الفتيات اللواتى كن يبحثن عن مغنم أو وجبة ، أصبحت سمعة المقهى أسوأ من أن يؤمها مواطن بلجيكى محترم

تقول الأوراق ان فيرنر كرامر تعرف على سيبيل ديكلور فى تلك المقهى ... ولقد ذهب إلى هناك لأول مرة مزهواً ببزته الرسمية النازية ... ويقول الذين عاصروا تلك الأيام ، أن العلاقة بينهما بدأت منذ اليوم الأول ... ولكن ، ولكى يوطد فيرنر كرامر علاقته بها أكثر ، فلقد استخدمها كمترجمة ، ثم كحاملة للرسائل ، وعندما تيقن من إخلاصها ، دربها كى تصبح واحدة من أخطر عملائه !

أفاق فنتون كرامر من تأملاته على صوت الفتاة تقول :

« إنكم لن تصدقونى أبداً ! » .

هم موران بالحديث فاردفت :

« لم لا ننتهى من هذا الأمر السخيف ! » .

« كيف ! » .

« استدعى جماعة ضرب النار ! » .

« استمعى إلى جيداً أيتها الفتاة ... أنا لا أخدعك عندما أقول لك أن فى هذا الملف الكثير عنك ... بل والكثير جدا مما لا يمكنك أن تتخيليه ! » .

قبل ان ترد ، فتح الملف وراح يقرا عليها أسماء هؤلاء الذين أودت بهم من بنى جلدتها ، وأسماء هؤلاء الذين وشت بهم من أفراد المقاومة البلجيكية ، وأسماء ضباط المخابرات الغربية الذين أوقعت بهم وأسلمتهم إلى فيرنر كرامر ، وأسماء الذين أعدموا بسببها والذين زج بهم فى السجون ومعسكرات الاعتقال وحتى الذينم عذبوا حتى الموت !! .

وكلما أوغل فنتون موران فى الحديث كان شحوب الفتاة يزداد ، ثم ، ثم وجه إليها ضربته القاضية :

« لعلك الآن لا تظنين أننا بمثل هذا القدر من الغباء ! »

ظلت على صمتها فعاد يقول :

« ربما كنت تحبين كرامر ، وهذا حقك ... لكنه فى الحقيقة لا يستحق هذا الحب ! » .

تهدجت أنفاسها فراح يضغط أكثر :

« نحن نعرف ، وأنت تعرفين أن له علاقات مع فتيات غيرك ! »

همت بالحديث فرفع يده موقفاً إياها وهو يقول :

« لم أكن أريد الخوض فى هذا الأمر ولكنك أنت التى دفعتينى إلى الحديث فيه ! » .

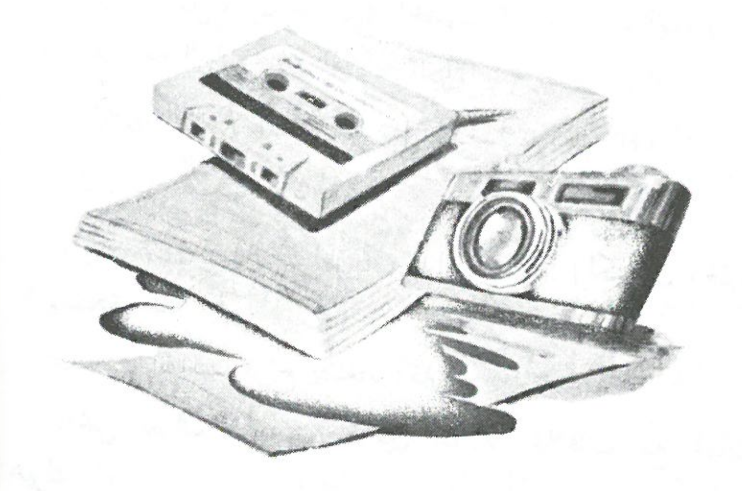
« أى أمر هذا ؟! » .

« أيتها الساذجة ... لقد أرسلك كرامر فى هذه المهمة كى يتخلص منك ويخلو له الجو مع ماريا ! » .

« هذا الوغد ... إننى أمقته ! » .

« وهكذا وقعت سيبيل ديكلور على وثيقة اعترافها أخيراً !

ورغم هذا ... فإن ما جعبتها من ألاعيب ومقاومة ، لم يكن قد نفد بعد !



٣

كان فنتون موران يعرف يقيناً ، إن سيبيل ديلكور لن تخون فيرنر كرامر إذا كانت قد أحبته حقا ... وإذا كان موقنا من هذا الحب ، فلقد أدرك مقدما أنها سوف تقوده فى دروب ومسالك لا نهاية لها حتى تتيح الفرصة لكرامر كى ينفذ بجلده ويهرب ، لكنه كان يعلم أيضاً ، أنه فى مثل هذه الأحوال ، فإن نقط الماء فى سقوطها الدائم فوق الصخر ، سوف تنحته ... إن سيبيل ستعطيهم دون شك بعض المعلومات الصحيحة ، مهما كانت هذه المعلومات بلا قيمة تذكر ، فإنها فى النهاية تعطيه شكلاً عاماً للشبكة التى تركها كرامر وراءه فى كولون وغيرها من الأماكن التى احتلها الجيش الأمريكى ... ومن هذا الشكل قد يستطيع أن يعرف أين كرامر . وسيستطيع دون شك أن يوقع به !

وعلى كل ، فما أن ذكر موران اسم الفتاة « مارى » حتى أدرك أنه أصاب فى نفس سيبيل وتراً ما ، فلقد تصاعد الدمع إلى عينيها

لأول مرة بشكل بعيد تماماً عن الادعاء ، لكنها مع هذا لزمت الصمت ، وتاهت عيناها وكأنهما تبحثان عن شيء فى هواء الغرفة الذى بدا مشحوناً أكثر مما ينبغى بمشاعر وأحاسيس مختلطة متضاربة ... ولقد أراد موران أن يجهز عليها ، فطلب من الحارس – بوضوح – أن يأتيه بملف فيرنر كرامر !

ما أن فعل فنتون موران هذا حتى اتسعت حدقتا سيبيل وهى تحدجه بنظرات مليئة بالشك ، ما أن جاء الملف ، حتى راح موران يقرأ منه ويسرد عليها الكثير عن فيرنر كرامر ، وكان وجهها يشحب تدريجياً ، غير أنه ، وهو يرقبها بعين صاحيه ، أدرك فى لحظة ، أنها بدأت تتمالك نفسها من جديد ، وأن رأيها قد استقر أخيراً على خطة ما ... فلقد قالت فى لحظة وهى ترفع يدها أمامه :

« كفى بالله عليك ... أنكم تعرفون عنه الكثير ! » .

أغلق موران الملف وراح ينظر إليها فى تساؤل ، لكنها ما لبثت أن قالت :

« ماذا تريدون منى أكثر مما لديكم عنه ! » .

« أنت تعرفين جيداً ماذا نريد منك يا سيبيل ! » .

« نعم ... إنه يعيش الآن مع هذه المرأة الفرنسية ، وهو كثيراً ما يقع فى حبائل هذا النوع من النساء ... والآن ماذا تريد منى أن أفعل ! » .

« أريد منك ألا تجعلى حبال الصبر تتقطع على أوتار مراوغتك ! » .

عاد الدمع ينحدر من عينيها فى صمت كان من الواضح الآن أنها تتعذب ، وأنها قد دخلت إلى حلبة صراع عنيف مع نفسها . هل تخون كرامر وتشى به وليذهب هو وعشيقاته إلى الجحيم ، أم تلعب مع هؤلاء الأمريكان لعبة القط والفأر التى تتقنها جيدا ؟!!

تمتمت بعد لحظات .

« أرجو ألا تحملنى أكثر مما احتمل أيها السيد ! » .

« وأنا أرجو ألا تدفعينى إلى إرسالك إلى جماعة ضرب النار ! » .

« إذن ، خبرنى بما تريد ! » .

« أريد أن أعرف لماذا أرسلك فيرنر كرامر إلى كولون ، كما أريد منك أن تذكرى لنا ما الذى كنت ستقومين به من مهام ، وأن ترشيدنا عن بعض العملاء الذين يتعاملون مع كرامر ! » .

مضت لحظات صمت طالت بعض الشىء ، حتى قالت سيبيل ديكلور :

« حسن ... إليك كل ما أعرفه ! » .

● ● ●

ظلت سيبيل تتحدث أكثر من أربع ساعات دون توقف ، كانت تتحدث وكأنها تقرأ كتاب مفتوحاً ... وكان من الواضح تماماً أن فيرنر كرامر لم تؤثر فيه هزائم الجيش الألمانى ولم تزحزح إيمانه بأن النصر فى النهاية سوف يكون حليف النازية ... كان من بين الذين

ذكرتهم سيبيل عدد هائل من العملاء الفرنسيين والبلجيكيين والهولنديين وبطبيعة الحال من الألمان ... قالت سيبيل أن كل هؤلاء قد زودوا ، قبل الانسحاب الألمانى بأوراق مزورة وجوازات سفر زائفة ... وأن معظم هؤلاء الذين ذكرتهم ، يعيشون فى كولونيا ، كما أنهم جميعاً يقفون الآن على أهبة الاستعداد كى ينفذوا الأوامر التى ستصدر لهم من كرامر فى أى وقت ، وهى أوامر خاصة بالتخريب فى أماكن حساسة من المدينة ، بحيث تشل فاعلية الجيش الأمريكى وتجعل تقدمه ضرب من المستحيل ... وأخيراً قالت سيبيل :

« ولعلى لن أضيف جديداً إذا ما قلت لك ، إنى أنا المسئولة عن كل هؤلاء الناس وعن التنسيق بين أفراد الشبكة ... فماذا تريد أكثر من ذلك ! » .

... ...

... ...

ران الصمت على الغرفة وكان ذهن فنتون موران يعمل بسرعة ، هنا يصبح الصراع بين العقول أشد ما يكون ضراوة . كما تصبح الحركة ، أية حركة وفى أى اتجاه . محسوبة بدقة بالغة ... إن خطأ صغيراً يقع فيه ، كفيل بأن ينبه كرامر إلى أنهم وراءه ، وبالتالى ، فلسوف تتاح له الفرصة أن يختفى أو يولى الأدبار !

كان من الصعب عليه أن يصدق كل ما قالته سيبيل على مدى أربع ساعات كاملة ... كان حديثها - وإن كان يحوى بالقطع عدد لا بأس به من الحقائق - فضفاضاً ليس له قوام واضح ، وكان يحتمل

بالتالى الكثير من التأويل والتفسير ... ويبدو أن سيبيل قد أدركت ما يجول فى خاطره ، فلقد أضافت :

« أنت تعلم طبعا ان كل هؤلاء الناس يعرفون أماكن الأسلحة والذخيرة والمفرقعات ، وهى كلها مخبأة هنا فى كولون فى أماكن لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وهى كلها جاهزة للاستعمال فى أى وقت ! » .

اكتشف موران أن صمته يؤثر فى الفتاة تأثيراً لا بأس به ، فلزم الصمت وراح ينظر إليها وقد هده التعب هدأ ... وعندما طال الصمت تململت سيبيل وهى تسأل :

« والآن ... ماذا تريد منى أكثر من ذلك ؟! » .

« لقد تحدثت الآن عن أسلحة وذخائر ومفرقعات ! » .

« لقد ذكرت الحقيقة كاملة ! » .

« نعم ... لكنك لم تذكرى مكان كل هذه المفرقعات ! » .

صمتت سيبيل لثوان ، نظرت إليه نظرة المغلوب على أمره فأدرك فى تلك اللحظة ، أنها تلعب اللعبة كما ينبغى أن يكون اللعب ، وكان هذا فى حد ذاته ، شيء مرضى تماماً لفنتون موران ، فإن يعرف أنها تراوغه بوضوح ، خير ألف مرة من الشك الذى كان يراوده فى صدقها ! .

« حسن ... أن لدى عنواناً فى شارع ليمبورجر ! » .

« أهذا هو المخبأ الذى يضعون فيه المفرقعات ؟! » .

« نعم هو ؟! » .

« ومن المسئول عن هذا المخبأ ! » .

فى اقتضاب ردت عليه :

« فرانز ماتياس ! » .

« وهل كان المفروض أن تذهبى إليه فيعطيك المفرقعات ! » .

« لا ... ليس قبل أن أذكر له كلمة السر ! »

كان فنتون موران ، فى حقيقة الأمر ، ينصب لها شركاً لكنها لم تقع فيه ، ذلك أنه من الصعب أن تذهب سيبيل إلى رجل مسئول عن مثل هذه المفرقعات كى يعطيها لها دون أن تذكر له كلمة السر حتى ولو كان يعرفها معرفة شخصية ... كان موران الآن . وقد عاد إلى سؤالها يتظاهر بالملل ، بل أنه فى واقع الأمر كان قد أصيب ببعض الملل لولا ذلك الاحساس بالمتعة الذى ينتاب المحترف إذا ما كانت المباراة مع محترف آخر ... وهكذا ، وعندما قالت ما قالت ، لاحت على وجهه ابتسامة أدركت سيبيل معناها بوضوح ، فلقد هتفت :

« إن كلمة السر هى ليل وضباب ! » .

كان اللعب الآن كما يقول المقامرون ، على المكشوف ، وكانت حدة الصراع تتصاعد لحظة بعد أخرى ، ولذلك ، فعندما سألها فنتون موران مرة أخرى إن كان فرانز ماتياس هذا ، هو المسئول عن المفرقعات ، عادت تهتف :

« لا ... لا .. ليس تماماً ! » .

بدت له تلك الفتاة المراوغة أذكى من التلاعب معها بالوسائل العادية ، ولقد أدركت هى الأخرى ، أن السيد موران قد قرر أن يلقنها درساً فأرادت أن تفوت عليه الفرصة ... ودون أن يسألها قالت :

« إن فرانز ماتياس واحد من قادة فرقة العاصفة النازية ! » .

كانت المعلومة التى أدلت بها الآن ، على قدر لا بأس به من الأهمية لكنه لزم الصمت مرة أخرى ... وعادت سيبيل ديكلور تضيف وكأنها تحاول استرضاؤه :

« كان المفروض ، إذا ما ذهبت إلى فرانز ، أن يأخذنى إلى شخص آخر ! » .

قال فنتون لنفسه : هكذا تستقيم الأمور ، فمال نحوها متسائلاً :

« ومن هو الشخص الاخر ؟! » .

« انجلهارد ! » .

« ومن هو انجلهارد ! » .

« انجلهارد متعاون هولندى ! » .

« متعاون ؟! » .

« نعم ... لقد تعاون معنا طويلاً ، لكنه أراد أن ينقذ عنقه فقدم نفسه للمخابرات الأمريكية ! » .

« آه ... » .

هكذا قال فنتون وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وعادت سيبيل تقول :

« كان المفروض أن أقتل انجلهارد ! » .

« تقتلين انجلهارد ؟! » .

« نعم ... حتى لا يشي بالمزيد من رجالنا ! » .

قفز فنتون موران من مكانه وقد أصابه السأم والملل ... أدرك أن هذه الفتاة الجميلة ذات العينين الزرقاوين سوف تقوده إلى ما يشبه بيت جحا فى دروبه المتشابكة والمختلطة ، أدرك أن الأوان قد آن كى يحسم الأمر معها ... قال وهو يهم بمغادرة الغرفة :

« يبدو أن لا أمل فى التعاون معك يا سيبيل ! » .

نهضتْ إليه متوسلة :

« لماذا لا تريد أن تصدقنى ؟! » .

« لأنك كاذبة بالسليقة ! » .

« لكنى لم أكذب ، فأنا مكلفة بالفعل بقتل انجلهارد ! » .

« كيف تقتلينه وهو يتعاون معنا ، ألا تظنين أنه سيصبح من السهل القبض عليك ؟! » .

« كانت هناك خطة موضوعة ! » .

« ولماذا لم تذكرى هذا منذ البداية ؟! » .

« لأنك لم تسألنى ! » .

استدار فنتون موران كى يواجه هذه الفتاة وقد لمع الشر فى عينيه ، مال نحوها والكلمات تتدفق من بين شفتيه كطلقات مدفع رشاش :

« استمعى إلىّ أيتها الفتاة ، لقد صبرت عليك كثيرا وطويلا ... كنت أظن أنت جديرة بأن أنقذك من الوقوف أمام جماعة ضرب النار ... لكنك على ما يبدو تتلهفين للموت ! » .

صرخت سيبيل فى وجهه :

« لقد اعترفت لك بما لم تحلم به ! » .

« هل ستعودين إلى المراوغة ؟! » .

« ما الذى تريده منى بالضبط ! » .

« أنت تعرفين ما الذى أريده أيتها الفتاة ! » .

« كان فرانز سوف يقدمنى لانجلهارد على أنى عميلة أمريكية ! » .

« أتريدين منى أن أصدق هذا ؟! » .

« كنت سوف أقتله إن عاجلاً أو آجلاً لكنكم سبقتمونى ! » .

« إن طفلا لو استمع إلى ما تقولين ما اقتنع ! » .

« كنت أريد أن أعرف منه مكان قيادة المخابرات الأمريكية فى الميدان ! » .

« إذن فلقد كان هذا هو الهدف من رحلتك هذه ! » .

« نعم ... ! » .

قالتها سيبيل وقد وصلت إلى درجة من العصبية جعلتها ترتجف ، وكان فنتون لا يزال واقفاً وهو ينظر إليها فى غضب ... مضت ثوان لزم فيها كل منهما الصمت . ثم تحرك فنتون نحو باب الغرفة مدمدماً :

« خير لك أن تقدمى للمحاكمة ! » .

صرخت كالمجنونة :

« ألم أخبرك بما تريد ! » .

التفت نحوها قائلا :

« سوف أعطيك آخر فرصة ، وبعدها لا تلومين إلا نفسك ! » .

هدات سيبيل قليلا ، ثم ، وكان هذا غريباً كل الغرابة ، ابتسمت وهى تقول :

« إذن اجلس هنا وسوف أقودك إلى الحقيقة ! » .

• • •

الذى لا شك فيه أن فنتون موران كان فى ذلك الوقت يشعر بالإجهاد ، وكان يعلم أن هذا واحد من أهداف، تلك الفتاة ... وكان يستطيع أن يستريح ، أن يتركها كى يتناول مشروباً أو يكافىء نفسه بوجبة تعيد إليه توازنه ، لكنه كان مدركاً أنها هى الأخرى كانت مجهدة . وأن هذه الدقائق هى فرصته فى اقتلاع الحقيقة منها ... فعاد إلى مقعده قائلاً :

هل تجيبين على كل الأسئلة ؟! » .

« ألم أفعل هذا منذ البداية ؟! » .

زمجر فنتون موران

« أريد إجابة بنعم أو لا ! » .

« نعم ! » .

« أريد أن أعرف الهدف من وصولك إلى هنا ! » .

« تدمير مركز القيادة الرئيسى للمخابرات ! » .

« فقط ! » .

« ومعرفة كل المعلومات الممكنة عن تجمعات قوات الحلفاء ! »

هم بالسؤال فأردفت :

« وأماكن التحصينات ! » .

هز رأسه فى سخرية فعادت تضيف :

« إن حصولنا على هذه المعلومات كفيل بتغيير الموقف وإنجاح الهجوم الألمانى المضاد ! » .

قالت سيبيل ما قالت وقد شحب وجهها شحوباً عظيماً ... أدرك فنتون موران أن لسانها قد زل ، وأن معلومة الهجوم الألمانى المضاد قد أفلتت منها دون قصد ، استرخى فى جلسته وقد أدرك أنه انتصر عليها واستطاع أن يضغط حتى أفلتت منها المعلومات ، لزمت سيبيل ديكلور الصمت بعد هذا لثوان لم تطل كثيراً ... ثم غمغمت وكأنها استسلمت تماماً :

« وبمجرد الانتهاء من انجلهارد والإجهاز عليه ، وحصولى على المعلومات من الشقيقات ... ! » .

قاطعها فنتون :

« الشقيقات ؟! » .

« نعم ... هذا هو الإسم الذى نطلقه على العميلات اللواتى يتعاملن معنا ! » .

نظر إليها الآن فى إعجاب لم يحاول أن يخفيه ، قالت :

« حسن ... لقد انتصرت على ... وإليك كل ما تبقى لدى من معلومات ... كان المفروض بعد الحصول على كل هذا ، أن أرسل إشارات ضوئية بالمصباح الذى وجدتموه معى ، فى مكان معين عبر نهر الراين ! » .

قالت سيبيل هذا ، ثم انخرطت فى البكاء ! .

وهنا ... نهض السيد موران وأمر لها بوجبة شهية من الطعام ، وبعضاً من مشروب منعش ، كان لابد من أن تكافأ على ما افضت به ... ذلك أن القصة الآن كانت تبدو منطقية إلى أقصى حد ... لكنها كانت فى حاجة إلى المزيد من التفكير والتدبير أيضاً !!

٤

فى مثل هذا العالم المتشابك البالغ الغموض ، لا يقتنع الرجال إلا بالحقيقة مجردة خالية من كل الشوائب ... ولقد كان فنتون موران الآن ، وبعد هذا الذى أفضت به سيبيل ديكلور ، مقتنعاً أن القصة بدأت تأخذ شكلاً منطقياً واضح المعالم ...

لقد جاءت من الضفة الشرقية للراين كى تتصل برجل كان عليه أن يوصلها إلى واحد من العملاء المزدوجين ، والذى يعرف من أسرار الشبكة الكثير ، والذى تعاون فى نفس الوقت مع القوات النازية ... وكان عليها بشكل أو بآخر ، أن تستخلص من هذا العميل المزدوج ، أكبر قدر من المعلومات عن جيوش الحلفاء ومواقع التحصينات والقيادات ، ثم تقدم بعد ذلك ، مع من تبقى من أعضاء الشبكة ، بنسف مركز القيادة الأمريكى ، وإشاعة البلبلة والفوضى - فى الوقت المناسب - بين جنود الحلفاء ... وهكذا يتسنى للجيش الألمانى أن يشن هجوماً مضاداً يعبر فيه نهر الراين ، ويطارد جيوش الحلفاء من جديد !

رغم هذا المنطق الذى يبدو مقنعاً ، بقيت هناك مشكلة بالغة الأهمية ، وهى مشكلة الآنسة سيبيل ديكلور نفسها .. وهل من الممكن الوثوق بها ، والارتكان إلى تصرفاتها فى المستقبل ؟! .

اجتمع فنتون موران مع زملائه وراحوا يتدارسون الأمر ... وفى الحقيقة ، فإن الأمر لم يكن فى حاجة إلى دراسة أو تدارس ، فلقد استبعد الجميع مسألة الثقة هذه ، بل كان العكس صحيحاً ، كانت كل الشواهد تدل على أن سيبيل ديكلور ، برغم كل ما التزمت به ، شخصية لا يمكن الركون إليها أو الثقة فيها ...

وهكذا ... وضعت خطة كانت كفيلة بإحباط أى حركة أو تصرف من شأنه أن يحبط الخطة المرسومة ... خاصة ، وأن شخصية هذا الرجل المدعو انجلهارد ، والذى قالت عند سيبيل أنه هولندى ... فهل كان هذا الرجل مخلصاً فى تعاونه مع الحلفاء حقاً ، أم أنه كان يخدعهم بدوره مستمراً فى ولائه للنازى ؟!

لم يكن هناك من وسيلة للتيقن من كل هذه الحقائق إلا باختبار سيبيل واختبار مدى الصدق فيما قالته وما كانت تنتويه !

وكانت الوسيلة التى استقر رأى فنتون موران عليها ، هى تلك الإشارات التى قالت أن عليها أن ترسلها عبر الراين من مكان محدد عند الشاطىء .

فى الليلة التالية ، اصطحبوها إلى الشاطىء ، وهناك قادتهم إلى حيث منحنى فى مجرى النهر ، توقفت ، سلموها المصباح ذى اللونين الأحمر والأبيض ، فأطلقت إشارة بالضوء الأحمر عند

نقطة معينة من الشاطىء الآخر ، كانت عبارة عن شعاعين طويلين ، وآخرين قصيرين ...

كان المفروض ، عند إطلاق الإشارة ، كما قالت لهم سيبيل ، أن يرسل كرامر من الشاطىء الآخر رسولاً ، أو يعبر هو بنفسه حتى يصل إلى حيث كانت ... وأعد الأمريكيون كميناً من مجموعة منتقاة من الرجال المزودين بأسلحة خفيفة لكنها مؤثرة ... وانتظرت سيبيل فترة ، ثم عادت كى تطلق الإشارة مرة أخرى .. وفى هذه المرة . جاءها الرد من الشاطىء الآخر باطلاق أشعة حمراء بنفس الأسلوب ، ومضت ساعة ، وساعتين ، لكن أحداً لم ينزل إلى المياه ... وظل الليل فى سكونه يحمل سر هذه الفتاة العجيبة ...

كان فنتون موران يقف الآن غير بعيد مع مجموعة من الرجال ، وكان السؤال الذى لم يجد له جواباً هو : هل عادت الفتاة إلى اللعب مرة أخرى ؟! ... وهل كانت الإشارات التى أرسلتها سيبيل إلى الشاطىء الآخر ، هى الإشارات المتفق عليها كى يلحق بها فيرنر كرامر ، أم أنها كانت إشارات تحذير ؟! .

لم يكن الأمر سهلاً بطبيعة الحال ، ولم يكن القرار سوى قرار فنتون موران وحده ، فهو الذى اضطلع بالعملية منذ بدايتها ، وهو الذى يستطيع أن يقدر أو يخمن أو يحدس الحقيقة ... ولقد مرت ثلاث ساعات كاملة دون أى استجابة من الشاطىء الآخر ... وهكذا ، لم يكن هناك مفر من العودة من حيث جاءوا ، بعد أن أمر فنتون ، بوضع قوة من الرجال فى هذا المكان احتساباً لأى طارىء !

فى تلك الليلة ، لم ينم فنتون موران ...

أعاد الفتاة إلى سجنها وطلب ، بإلحاح ، أن تكون الحراسة عليها مضاعفة ... بل وصل به الأمر أن تحدث بنفسه مع الحراس طالباً منهم اليقظة الكاملة لأية محاولة لاختطافها ... كان يعلم ألاعيب فيرنر كرامر ، كما يعلم أنه يقود مجموعة انتحارية من الرجال والنساء الذين يستطيعون أى شىء ، ويفعلون أى شىء ... غير أن الليلة مضت هادئة ، وعندما انبلج نور الصباح ، كان موران قد اتخذ قراراً ، بالسير مع هذه الفتاة الأعجوبة حتى النهاية ... وبالرغم من كل شىء ، فلقد كان هناك فى أعماقه إعجاب لم يحاول أن يخفيه عن نفسه ... كانت سيبيل حتى الآن ، جديرة بالإعجاب كجاسوسة أو عميلة أو مهما كانت التسمية التى يحلو للبعض أن يطلقها عليها ... وكانت المباراة بينهما تتخذ الآن سمة الخطورة التى كانت تتزايد لحظة بعد أخرى .

• • •

فى صباح اليوم التالى ، صحب الرجال سيبيل ديكلور إلى العنوان الذى ذكرته لهم ، والذى سوف يجدون فيه هذا الهولندى الذى تزعم أنه يعمل مع المخابرات الأمريكية ... عندما وصلوا إلى العنوان ، كان الكمين الذى نصبوه قوياً ومحكماً بأقصى درجات القوة والإحكام ... وعندما دقت سيبيل جرس الباب ، كانت محاطة برجلين تخفياً فى أزياء ألمانية رثة ... فتح الباب وبدا فى فتحته رجل طويل القامة أشعث الشعر حاد النظرات ، ما أن وقع نظر الرجل عليهم حتى هتف فى ضيق وخوف وتوتر :

« ماذا تريدون ! » .

قالت سيبيل :

« أريدك أن تأخذنى إلى إنجلهارد ! » .

دمدم الرجل بكلمات غاضبة وهو ينكر معرفته بشخص يحمل الاسم ... لكن أحد الرجال المحيطين بسيبيل ، وكان يتقن الألمانية ، اقترب منه فى هدوء وهو يهمس :

« إننا نريده لأن له موعداً مع الليل والضباب ! » .

ما أن نطق الرجل بكلمة السر حتى أنفثأ غضبه ولانت ملامحه ... دعاهم إلى الدخول فدخلوا ، سألهم فور إغلاقه الباب إن كانوا قد اطمأنوا إلى أنهم غير متبوعين من المخابرات الأمريكية ، فأكدت له سيبيل أن كل شىء على ما يرام ، وأن عليه أن يسرع بتوصيلهم إلى انجلهارد فليس هناك وقت ... دلف الرجل إلى إحدى الغرف وغاب لثوان ، وكان أحد الرجلين قد قفز مسرعاً كى يلتصق جسده بالحائط وهو يشرع سلاحه تحسباً لأى حركة يقوم بها هذا الرجل الذى عاد من الداخل وقد ارتدى معطفاً سميكاً ... ما أن رأى السلاح المشرع فى يد رجل المخابرات حتى ابتسم ، واتجه نحو الباب طالباً منهم أن يتبعوه !

وفى الطريق إلى حيث يقطن انجلهارد ، كان لابد للمجموعة أن تنقسم إلى قسمين ، سار أحد الرجلين مع الرجل الطويل ، بينما تأبط الآخر ذراع سيبيل ... وفى حقيقة الأمر فإنهم لم يكونوا فى حاجة إلى كل تلك التدابير ، فلقد كانوا متبوعين من رجال فنتون الذين

أحاطوهم من كل جانب فى سيارات كانت تتبادل مواقعها باستمرار حتى لا تثير أى نوع من أنواع الشبهات ... غير أن التظاهر بالحرص البالغ كان كفيلاً بأن يبعث الطمأنينة إلى نفس الفتاة والرجل معاً ... وعلى كل ، فلقد أوصلهم الرجل إلى حيث كان يقطن انجلهارد ، وعندما دق الباب ، كان انجلهارد نفسه هو الذى واجه الرجال ، وفى بساطة بالغة ، وصوت خافت لا يلفت الأنظار ، قال أحد الرجلين موجهاً حديثه إلى انجلهارد وصديقه الفارع الطول :

« إنكما تريان أن فى جيبى مسدس مصوب إليكما ، كما أن هناك العديد من الفوهات المصوبة نحوكما من كل إتجاه ... إن أية حركة منكما ، كفيلة بأن ترسلكما إلى العالم الآخر ! » .

أصيب الرجل الطويل بدهشة وفزع ، أما انجلهارد ، فلم يأبه لتهديد ، بل صاح وهو ينظر إلى سيبيل ديكلور :

« أبعدوا هذه المرأة الشريرة عنى ! » .

قبل أن يخطو إلى الداخل ويغلق الباب ، كان أحد الرجلين قد سبقه إلى هناك ، ودفع الآخر الرجل الطويل ، بينما انشقت الأرض عن ثالث أمسك بذراع سيبيل وهو يقول من بين أسنانه :

« ادخلى إلى البيت دون جلبة ! » .

... ...

... ...

وكان ما حدث فى داخل البيت غريباً بكل المقاييس ، فلقد

أصيب انجلهارد بانهيار عصبى لرؤيته لسيبيل ديكلور ، ظل يردد فى فزع : « أبعدوا هذه المرأة ! ... أبعدوا هذه المرأة عنى ! » ... وعبثاً يحاول الرجال تهدئته ، فلقد ظل يردد تلك الجملة حتى سقط مغشياً عليه !!

• • •

كان الأمر محيراً لفنتون موران أكثر ما تكون الحيرة ، ذلك أن الشك فى سيبيل ديكلور كان لا يزال قائماً فى نفسه لم يتغير ، ولكن ها هو الدليل الدامغ على صدق ما تقول بين يديه حياً !

ذلك أن الهولندى انجلهارد ، بعد أن أفاق من غيبوبته ، كان الذعر قد ألم به وأخذ بتلابيبه بالرغم من أنهم أبعدوا سيبيل عنه .. وبعد أن أسترد هدوءه اعترف بأنه كان يعمل لحساب الجستابو ، قال هذا وهو يصيح :

« من كان يستطيع أن يرفض لهم طلباً ! » .

ثم قال بعد ذلك أنه عرف سيبيل ديكلور لوقت طويل ، وأنه تعامل معها كثيراً ويعرف مدى قسوتها وبرود أعصابها ، ولطالما قتلت أمامه ، بيد ثابتة ، الكثيرين ممن رفضوا التعاون أو أظهروا تعاطفاً مع الحلفاء ... غير أن المذهل فى الأمر ، أنه أنكر إنكاراً تاماً معرفته بأى شىء من الأسلحة والذخيرة أو المفرقعات ... وأكد ، بدل المرة مرات ، أنه واثق من أن سيبيل قد جاءت إلى كولونيا خصيصاً كى تغتاله ، فهى تعلم جيداً ، كما يعلم رجال الجستابو ، أنه مع الحلفاء ، وناشد الأمريكيون أن يحموه منها ...

ورغم أنهم أكدوا له أنه أصبح فى مأمن من أيديهم ، إلا آن ثقته فى قدراتهم – على ما يبدو – قد دفعته ، بعد أربع ساعات فقط من القبض عليه ، إلى محاولة الانتحار ! .

غافل انجلهارد حراسه وقطع شرايين معصمه ... ورغم أنه كان قد فتش تفتيشاً جيداً ، إلا أنه استطاع أن يخفى شفرة حلاقة فى أحد أكمام سترته ... ولقد أسعف السيد انجلهارد ، ولقد حملوه إلى المستشفى حيث أسعفه الأطباء وخاطوا القطع وضمدوا الجرح ... وعندما انتهوا من هذا الأمر ، كان انجلهارد الآن على استعداد للاعتراف بكل شىء ، والإجابة على كل سؤال !

فى تلك الليلة ، أعيدت سيبيل ديكلور إلى سجنها الانفرادى ، وقبل أن يقودها الرجال نظرت نحو فنتون موران متسائلة :

« **ألم يحن الوقت بعد كى تثق فى كل ما قلته لك !!** » .

وابتسم فنتون موران ، كان الآن مزوداً بقدر جديد من المعلومات ، وكان يعرف كيف يكسر شوكة هذه الفتاة ، وأن يحطم عنادها ... ابتسم السيد موران ، ولم يجب على سؤالها ، وعادت سيبيل إلى زنزانتها !

• • •

فى الصباح الباكر ... وعندما فتح الحراس باب الزنزانة ، كانت سيبيل هناك ، لم تكن نائمة ، بل كانت تجلس وقد انتفخت عيناها

شأن من لم يذق طعم النوم طوال الليل ... رفعت رأسها عندما دخل الحارس لاصطحابها إلى حيث كان موران فى انتظارها وسألت :

« **هل جماعة ضرب النار جاهزة لتنفيذ الحكم ؟!** » .

تساءل الحارس فى دهشة حقيقية ، فهو لم يكن يعلم شيئاً عن الأمر كله :

« **أية جماعة ، وأى حكم أيتها الآنسة !** » .

عندما دخلت سيبيل إلى حيث كان موران ينتظرها ، لم تجده وحده ... كان معه مجموعة من الرجال الأشداء الذين بدت وجوههم وكأنها أقنعة لا تنبىء عن شىء ، ولا تعطى تعبيراً .. وعندما جلست قبالته سألته :

« **ألا زلت عند موقفك منى ؟!** » .

« **هل أنت راغبة حقاً فى التعاون معنا ؟!** » .

هتفت فى ضيق :

« ألم أتعاون معكم حتى الآن ؟! » .

« أنت تعرفين ما الذى أقصده بالضبط ! » .

« ألم أرشدكم إلى انجلهارد ... هل استطاع أن ينكر أنه كان واحداً من رجال الجستابو ؟! » .

« لقد اعترف انجلهارد بكل شىء ! » .

هوت الجملة على سيبيل فأدارت رأسها ، ارتجفت شفتاها وهى تقول :

« وهل صدقت كل ما قاله ؟! » .

« أنت لم تجيبي على سؤالي ! » .

« نعم .. أنا على استعداد للتعاون معكم ! » .

« أنك تعرفين كل عملاء الجستابو فى كولونيا ... أليس كذلك ؟! » .

كان فنتون الآن يلف الحبل حول عنق سيبيل ، وكان يضغط أيضاً ... ذلك أن سيبيل لم تكن قد ذكرت من قبل أنها تعرف كل العملاء ... كان كل ما ذكرته ، أنها تعرف بعضهم ، تعرف بعض القيادات ... ولقد ظلت صامتة لثوان وكأن أمراً قد استولى على ذهنها ، ثم تمتمت بعد لحظات :

« هل ذكرت لك إنى أعرف كل عملاء الجستابو ؟! » .

« أليس هذا ما قلتيه منذ يومين ؟! » .

همت بالإنكار عندما التفت فنتون نحو واحد من الرجال قائلاً :

« أطلب من جاك أن يأتى بما دونه من اعترافاتها ! » .

هم الرجل بالحركة لكنها هتفت :

« لا ... لا داعى لأن تأتى به ... فلسوف أرشدكم عنهم جميعاً ! » .

وهكذا أحس فنتون موران ، أنه كسب جولة أخرى ، فى صراعه هذا المرير ، مع هذه الفتاة الغربية ، والقوية ، والتى ، مهما كانت تقف فى صفوف الأعداء ، جديرة بكل احترام !

كانت سيبيل ديكلور ، محترفة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، بل كانت ، أكثر من محترفة ! لكنها سقطت سقطة ما كان يجب أن تسقط فيها من كانت تملك خبرتها !!!

• • •

كان الموكب مكوناً من ستة رجال ، قال لها فنتون أنه لن يصحبها هذه المرة ... قدم لها أحد هؤلاء الرجال قائلاً :

« أحب أن أقدم لك السيد هارى كنج ، وهو المسئول عن هذه الحملة ! » .

نظرت إليه سيبيل ملياً وابتسمت ، ولدهشتها ، فلقد ابتسم السيد كنج وهو يخرج من جيبه المسدس الذى ضبط معها وكان ملتصقاً بجسدها :

« أليس هذا هو المسدس الذى تملكينه ! » .

« نعم هو ! » .

« أحب أن أنبهك . إنى على استعداد كامل لاستعماله عند أول حركة ليست فى مكانها ! » .

ابتسمت سيبيل للمرة الثانية ، وقال موران لرجاله :

« سوف تصحبكم هذه الآنسة لاصطياد أصدقائها ، فهى تعرف عناوينهم فرداً فرداً ! » .

هتفت سيبيل محتجة :

« وهل ذكرت لك هذا أيضاً ؟! » .

تجاهل موران احتجاجها مردفاً وهو يقدم ورقة لقائدهم هارى كنج :

« وهذه هى العناوين كما جاءت فى اعترافاتها ! » .

« إنك تكذب أيها السيد فأنا لم أذكر عنوانا واحداً ! » .

مرة أخرى تجاهل فنتون موران حديثها واستكمل :

« كل ما هو مطلوب منكم ألا تثقوا فيها مثقال ذرة فهى غير جديرة بهذه الثقة ! » .

بدت سيبيل وكأنها تتلوى فى فخ مثل خيوط العنكبوت ، صاحت مختنقة الصوت :

« أبعد كل هذا الذى قدمته لك من معلومات ؟! » .

« ولا تدعوها تغيب عن نظركم ، وراقبوا كل شىء بعيون مفتوحة حتى لا تقودكم إلى كمين ! » .

وهنا قال مستر كنج :

« وماذا لو قادتنا إلى كمين ؟! » .

« صوب فوهة المسدس إلى رأسها ولا تتردد فى الضغط على الزناد !! » .

أطلقت سيبيل ضحكة ساخرة ... فالتفت الرجال نحوها ، وكانت تقول لموران :

« أنك تحرضه على اللعب مع جاسوسة ... ألا تعرف أن مثل هذا الأمر كاللعب بالنار ! » .

فى سخرية أشد قال موران :

« أم أخبرك أن رجالنا مدربون على اللعب بالنار أيضاً ؟! » .

• • •

كانت القافلة مكونة من ثلاث سيارات راحت تقطع شوارع المدينة التى دمرتها الحرب وأحالت مبانيها إلى أنقاض ... كانت سيبيل تركب إحدى هذه السيارات إلى جوارى هارى كنج ... وأشارت ، أثناء سير القافلة ، إلى عدد من رجال البوليس كانت تعلم أنهم يعملون مع الجستابو ، وكانت تكفى إشارة من كنج كى يطبق الرجال على رجل البوليس ويقتادونه إلى سياراتهم ... كان وجهتهم ، كما قالت سيبيل ، هى ورش إصلاح قطارات السكة الحديد ... وهناك ، قادتهم إلى رجل كهل تخطى الخمسين فى عمره ، فوجدوا معه خريطة توضح كل التعديلات التى أجراها المهندسون الأمريكيون لمواجهة عمليات الشحن ... ولقد أنهار الرجل فور القبض عليه ولم يكن فى حاجة لأن يسأل ، فلقد باح بكل ما عنده دون سؤال ...

كانت الشبكة التى أنشأها فيرنر كرامر فى كولونيا عجيبة بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، كانت متنوعة إلى حد يبعث على الدهشة ... وعندما قادتهم سيبيل ، على سبيل المثال ، إلى رجل يملك متجراً للبقالة ، ظن السيد كنج أنها بدأت تلعب بذيلها ، لكنه فوجىء – عند تفتيش البقال – أنه يملك قائمة بكل سيارة من سيارات الجيش الأمريكى مرت من أمام المتجر ، كانت القائمة مليئة بعدد السيارات وأرقامها ، وأنواعها مما يتيح دون شك لفيرنر كرامر أن يعرف إحصاء تقريبياً لسيارات الجيش ...

كما كان فى القائمة جرسوناً يعمل فى مقهى ، وجد هو الآخر يحمل بياناً بشارات الجنود التى يعلقونها ، كل جندى دخل المقهى ، كان هذا الجرسون يسجل الشارة التى تنبىء عن السلاح الذى ينتمى إليه ... لكن أغرب العملاء على الإطلاق . كان حارس الكنيسة العجوز ، الذى وجدوا معه معلومات مذهلة عن كل وحدة من وحدات الجيش .

كان عدد العملاء وفيرا ...

وكانت حصيلة اليوم الأول لا بأس بها ...

ولكن فنتون موران ، عندما راجع كل الاسماء ووظيفة كل عميل والمهام الموكولة إليه ... بدا واضحاً له تماماً ، أن سيبيل ديكلور ، لم تقدم له سوى النفايات من العملاء ... كان كل هؤلاء من العملاء الثانويون ، أما هؤلاء الذين يبحث عنهم ، أما القادة المؤثرين ، فإن سيبيل لم تقدم له واحدا منهم !

... ...

... ...

نامت سيبيل ديكلور فى تلك الليلة نوما عميقاً ... كانت قد قدمت للأمريكيين الآن وجبة شهية من العملاء والجواسيس الألمان الذين كانوا مندسين فى كل مكان ، والذين ، لو تجمعت المعلومات التى حصلوا عليها ، لشكلت خطراً حقيقياً على أداء الجيش الزاحف !

ولكن فنتون موران ، كان يعلم أن وراءه عملاً شاقا سوف

يستغرق الليل بطوله ... كان وراءه استجواب كل هذه الشخصيات التى قبض عليها ، واستخلاص أكبر قدر من المعلومات عن الشبكة منهم ، ثم مقارنة أقوال كل منهم بأقوال الآخر ، ثم استنباط الحقائق من كل هذا ... ثم ...

ثم يصبح عليه ، فى الغد ، أن يلعب مباراة أخرى مع سيبيل ديكلور .

وكان يخبىء لها مفاجأة بحق !!





في صباح اليوم التالى ، استيقظت سيبيل ديكلور فى موعدها تماماً ، كانت نشيطة ، تبرق فى عينيها نظرات انتصار تخفى وراءها الكثير مما انتوت أن تفعله ... لكنها ، وعندما جاءوا إليها بطعام الإفطار ، أدركت أن فى الأمر شيئاً ... كان الافطار مكوناً من شرائح رقيقة من السمك المدخن ، مع طبق من البيض كانت آثار الزبد لا تزال تغلى فيه ، عدا كمية لا بأس بها من الجبن الفرنسى الفاخر ، وملعقة كافية من « المربى » ... وفنجان من القهوة الساخنة !

كانت هذه وليمة بحق ... وكانت سيبيل دون شك قد افتقدت مثل هذا الإفطار منذ زمان بعيد ، منذ ما قبل دخول الأمريكيون إلى ألمانيا عندما شحت المئونة وعز الطعام ... ورغم معرفتها ، بل يقينها أن فى الأمر شيئاً ، إلا أنها أقبلت على الطعام بشراهة ... راحت تلتهم كل ما قدم لها إلتهاماً وعندما طلبت من حارسها ، بعد أن تناولت الإفطار ، سيجارة ، قدم لها صندوقاً كاملاً من السجائر الأمريكية !

عندما انتهت من تدخين السيجارة الأولى ، دخلت حارسة السجن كى تقدم لها ملابس بدت رثة بكل المعانى ، كانت الملابس كافية لمواجهة البرد فى شهر مارس ، لكنه كان واضحاً أنها ملابس سجينة أخرى عانت شظف العيش طويلاً وعندما سألت الحارسة عن سر الإتيان بهذه الملابس ، قالت هذه بجفاء :

« **أنا لا أسأل عادة عن الأسباب وراء ما يصدر إلى من أوامر !** » .

« **ولكن ما هو المطلوب منى ؟!** » .

« **ليس أكثر من استبدال ملابسك بهذه الملابس !** » .

قالت الحارسة هذا وهى تغادر الغرفة التى تحولت إلى زنزانة ...

ولم تجد سيبيل من طريق سوى اتباع الأوامر ، وكان الغريب فى الامر ، أن الملابس الجديدة ، كانت تلائم جسدها وكأنها ملابسها الخاصة !!

« **ما هو سر كل هذا الكرم المفاجىء ؟!** » .

كان هذا هو سؤالها الأول عندما واجهت فنتون موران بعد أن اقتادوها إليه . قال باسماً :

« **ألم تقومى بواجبك بالأمس على خير وجه ؟!** » .

« **لقد قدمت ما وعدت به !** » .

« **ليس كل ما وعدت به يا سيبيل !** » .

« **ما الذى تعنيه بالله عليك ؟!** » .

وراح موران يشرح لها خطته الجديدة ، وكأنه يتعامل تماماً ، مع واحد من عملائه المخلصين !

● ● ●

بعد ساعة واحدة ، كان سيبيل تهبط من أحد اللوارى التابعة للجيش الأمريكى ، وبجوارها هارى كنج الذى كان هو الآخر يرتدى ملابس رثة لرجل هولندى بسيط الحال ... هبطا عند بوابة أحد المعسكرات التى كانت تقبل اللاجئين الهولنديين البائسين الذين يريدون العودة إلى بلادهم ... كانت سيبيل الآن امرأة أخرى تماماً ، قليل من الرتوش أخفت ذلك التورد التى زين وجهها بعد وجبة إفطار دسمة ، كما كان هارى كنج ، الذى أخبرها قبل أن يبدأ رحلتهما ، أنه لازال يحتفظ بمسدسها جاهزاً للإطلاق فى جيبه ... كان هو الآخر يبدو فى هيئة فلاح هولندى نال من العذاب الكثير ، وقد نبتت ذقنه ، وراح يتشمم رائحة الطعام هنا وهناك وكأنه لم يذق له طعماً منذ أيام ..

وقبل أن يدخلا إلى المعسكر وينضما إلى بقية اللاجئين ، رشتها السلطات الأمريكية بمسحوق قاتل للحشرات كما هى الحال مع بقية اللاجئين ... ولقد استندت سيبيل لذراعه أثناء سيرها وسط الآخرين ... وهكذا استطاعت أن تشير له ، دون أن يشعر أحد ، على ستة من عملاء فيرنر كرامر ، الذين اندسوا وسط اللاجئين هرباً من السلطات الأمريكية .

غير أن هؤلاء الستة - أيضاً - لم يكونوا سوى نفاية العملاء ... وهكذا ، فلقد تأكد لفنتون موران ، أن سيبيل ديكلور ، لا تريد الإيقاع بفيرنر كرامر أو بأحد من رجاله المقربين ، وأن كل ما نفعله ، لم يكن إلا كسباً للوقت ... وهو ، لم يكن يريد سوى كرامر ... إنه رأس الحية ، هو مصدر قوتها ، فإذا ما قطع الرأس ، كان سهلاً أن تسيطر على باق الجسد .

وهكذا . ودون حوار ، أمر موران بإلقاء سيبيل فى زنزانة حربية حقيقية ، وطلب معاملتها معاملة الخونة والجواسيس !

غير أنه لم تمض أربع وعشرين ساعة ، حتى طلبت سيبيل رؤية فنتون ... وما أن واجهته حتى قال لها بوضوح ودون لف أو دوران :

« **كفاك لعباً أيتها الفتاة ، ما الذى تريدينه الآن بالضبط ! »** .

« **لقد قدمت لك عدداً لا بأس به من الجواسيس والعملاء ! »** .

كان فنتون فى حالة عصبية يرثى لها ، كان قد استنفذ كل ما لديه من حيل ، وكلما أحس أنه أصبح قريباً من النصر ، سخرت منه هذه الفتاة ... وعندما قالت ما قالت ، صرخ فيها غاضباً :

« **أنا لست فى حاجة إلى عامل سكة حديد أو بقال أو جندى بوليس لا يعرف من أمر نفسه شيئاً ... أنت تعرفين أنى أريد كرامر ، فيرنر كرامر ولا أحد غيره ، وليس أمامك الآن سوى طريق من اثنين ، إما أن ترشدينى إلى مكانه ، وإما أن أرسلك إلى بلجيكا كى تحاكمى كجاسوسة ! »** .

بدت سيبيل مسكينة بلا حول ولا طول وهى تقول :

« **أقسم أنه منذ أن رحل مع مارى وأنا لا أعرف له مكاناً ! »** .

عاد إلى الصراخ :

« **أتظنين أنى أقبل التعامل مع عميل مزدوج ؟! »** .

لاذت سيبيل بالصمت لثوان ، ثم قالت كالمستسلمة :

« **إذن ، فإلىَّ بقلم وورق ! »** .

... ...

... ...

كتبت سيبيل هذا الخطاب :

« **باولوس**

كل شىء حسن ، احضر مع حامل هذه الورقة ، وسنستطيع الرحيل معاً دون أى خطر .. لقد سامحتك رغم ما حدث بينك وبين مارى ... لا أزال أحبك ... أحضر إلى التى تحبك دائماً ... سيبيل » .

قالت سيبيل أن « باولوس » هو الاسم الكودى لكرامر ... ثم طلبت خريطة محلية للمنطقة ... وعند انحناءة بذاتها فى نهر الراين ، وعلى الضفة الشرقية منه وضعت أصبعها قائلة :

« **هنا مكان اختفائه ! »** .

سألها هارى كنج فى جفاء :

« ولماذا لم تذكرى ذلك من قبل ؟! » .

« إن المرأة التى أحبت يوماً ، ليس من السهل عليها أن ترسل بمن أحبت إلى الموت ! » .

إلى هذا الحد ، كان صبر فنتون موران قد نفذ ، نظر إلى سيبيل فى غضب بعد أن ألقى نظرة على الخطاب الذى كتبته ، ثم قال فى هدوء :

« غريب يا سيبيل أنك تظنين أننا بمثل هذا الغباء ! »

هتفت متسائلة :

« عم تتحدث بحق الشيطان ! » .

ألقى بالورقة فى وجهها ثم قال وهو يستعد للانصراف :

« أن أى غرّ يذهب بهذه الورقة إلى أى مكان ، سيكون مصيره الموت المحتم ! » .

قبل أن تفتح منها بكلمة ، كان قد أصدر أوامره بإعادتها إلى السجن من جديد !

• • •

وفى حقيقة الأمر ، فإن فنتون موران كان قد قرر أن ينسى الفتاة مؤقتاً ، أدرك الآن أنها – أبداً – لن تخون الرجل الذى أحبته ، كما أدرك بطبيعة الحال ، أن هؤلاء الرجال الذين وضعوا للعلم قوانينه على

مدى أجيال ، لم يخطئوا عندما أثبتوا أن هذا النوع من النساء ، برغم شراستهن وقسوتهن ، يخلصن إذا ما وقعن فى الحب مهما كانت العقبات أو الآلام ، لكنه ، على الوجه الآخر ، كان يأمل أن تمده سيبيل بالمزيد من المعلومات عن جواسيس الألمان وعملائهم المندسون وسط جيوش الحلفاء الزاحفة ، وكان هذا الأمر ، بطبيعة الحال ، يسبب له ولرجال المخابرات الأمريكية مزيداً من الصداع كلما توغلت الجيوش فى الأراضى الألمانية ...

كانت سبعة أيام قد مرت منذ انتشال سيبيل ديكلور من مياه نهر الراين ، ولقد مرت على آخر لقاء له بها ثلاثة أيام أخرى ، عندما طلبت سيبيل أن تراه للمرة الثانية .

« والآن ... ما الذى تريدينه بالضبط ! » .

كانت العلاقة بينهما الآن قد تأزمت ، قالت سيبيل :

« فى الحقيقة أنا لا أعرف أين يقيم كرامر بالضبط ... لكننى أعرف شيئاً آخر أكثر أهمية ! » .

أدرك موران ، ربما للمرة العاشرة ، أن الفتاة لن تشي بمكان حبيبها مهما كلفها الأمر ... وإنها فى سبيل كسب بعض الوقت سوف تضحى بالمزيد من العملاء ... كما أدرك أنها بالفعل سوف تقوده إلى ما يريد :

« ما هو هذا الشىء الأكثر أهمية ؟! » .

« إننى أعرف المخبأ الذى وضعوا فيه كل الملفات السرية للجستابو ! » .

« وهل أنت على استعداد لإمدادنا بهذه الملفات ! » .

« الآن لو أردت ! » .

وهكذا ... جاءوا لسيبيل ديكلور بملابس ممرضة أمريكية ، صحبها هارى كنج مع مجموعة منتقاة من الرجال ، فلابد أن هذا المخبأ فى مكان مهجور ، ولابد من الحرص أيضاً ... وهكذا قادتهم سيبيل إلى مصنع صغير مهجور قرب الراين ... وكانت هذه المرة صادقة !

لم تمض ثمان وأربعين ساعة ، حتى تم القبض على أكثر من مائة وخمسين عميلاً من عملاء الجستابو كانت سلطات الأمن المختلفة فى الجيش الأمريكى والمصاحبة له تبحث عنهم فى كل مكان ، بينما كانوا جميعاً مندسين وسط جنود الحلفاء يمارسون حياتهم وعملهم فى أمان كامل !

كانت ضربة عنيفة وقوية دون شك ، ضربة أدرك فنتون موران أنها ذروة ما سوف يحصل منها عليه . لذلك ، فلقد قرر التخلى عن التحقيق معها ، لقد حققت له الكثير حقاً . وساعدته على توجيه لطمة لشبكات التجسس النازية البالغة الخطر ... لكن رأس الأفعى كان لا يزال طليقاً ، كان كرامر لا يزال بعيداً عن متناول يديه ، وهكذا ، وقع اختيار القيادات على محقق آخر ، محقق اشتهر بقدرته الفذة على التحقيق مع الأسرى ذوى العناد الشديد والطابع الخاص . كما أنه كان يتمتع بميزة كبرى ، هى الصبر الذى تمتد حباله دون أن يفرغ ...

وهكذا ، فوجئت سيبيل ، أنها تواجه رجلاً جديداً اسمه : تشارلس كينير .

• • •

منذ اللحظة الأولى أدركت سيبيل ديكلور ، بخبرتها الفذة ، أنها أمام نوع مختلف من المحققين ... كان السيد كينير من ذلك النوع الهادىء هدوءاً يثير الأعصاب ، وعندما سألها فى أول لقاء بينهما عن مكان فيرنر كرامر ، قالت أنها تظن أنه فى كولونيا ، وأنه يبحث عنها وعن مارى .

« وهل تعرفين أين يقيم ؟! » .

فى صوت متلعثم قالت :

« هناك مكان اعتقد أنه يختفى فيه ولكننى لست واثقة تماماً منه ! » .

« إذن فلنحاول ... وليس هناك ضرر من المحاولة ! » .

وخرجت معهم سيبيل تجوب بهم طرقات كولونيا المهدمة ، كان تشارلس كينير معها هذه المرة ، كما كانت هناك قوة من الرجال تستطيع التعامل مع الشيطان نفسه ... حتى إذا وصلوا إلى طريق ضيق فى نهايته بيت يبدو قديماً متداعياً توقفت ، وأشارت إلى البيت قائلة :

« أعتقد أن هذا هو المكان ! » .

عندما اقتحموا البيت كانت سيبيل فى المقدمة ، لكنهم لم يجدوا فى

المكان أحداً ، ولم يجدوا ما يدل على وجود كرامر .. لكنهم ، فى لحظة انتبهوا إلى أنها كانت تنظر إلى رداء نسائى أحمر اللون وقد شحب وجهها وانتابتها تلك الحالة العصبية الرهيبة ، ثم ما لبثت ، أن تقدمت من الرداء وهى تقول من بين أسنانها :

« هذا الوغد ... لقد كان يعيش معها هنا ! » .

كان كينير الآن يرقبها فى إمعان ، وكانت حالتها العصبية تتزايد لحظة بعد أخرى وقد أمسكت بالرداء وراحت تمزقه ... وعندما لمح على بعد حذاءاً نسائياً أشار إليه وهو يقول :

« وهل هذا حذاءها أيضاً ! » .

كان هذا أكثر ما تحتمله أعصاب سيبيل التى صرخت :

« لقد كنت حمقاء عندما أرسلت له إشارات ضوئية كى انقذ حياته ، بينما هو يعيش مع هذه المرأة الفرنسية ! » .

قالت هذا ثم انخرطت فى بكاء مرير ... وعندما غادروا البيت إلى حيث السيارة التى حملتها فى طريق العودة ، كان كينير يدخن فى هدوء ، وكانت دموعها لا تزال تبلل وجنتيها عندما سألها :

« عن أية إشارات ضوئية تتحدثين يا سيبيل ! » .

قالت من بين شهقاتها :

« كان المفروض عندما ذهبت إلى شاطىء النهر أن أرسل له رسالة ضوئية أطلب منه الحضور ، لكنى أرسلت إشارة تقول له إنى وقعت فى أيدى الأعداء ! » .

وهكذا أدرك السيد كينير أن سيبيل لا تملك الآن شيئاً . وأن ذلك التحذير الذى أرسلته إلى فيرنر كرامر ، كاف لأن يجعل الرجل يختبىء حيث لا تعرف هى ما دامت فى أيدى الأعداء ... وهكذا ، قرر تشارلس كينير أن سيبيل أصبحت بلا فائدة ... لقد ساهمت فى القبض على أكثر من مائتى عميل من أخطر عملاء الجستابو ، وكان هذا - فى رأيه - كافياً جداً ... ومن ثم ، فلقد تقرر إعادتها إلى السجن ونسيان أمرها تماماً .

● ● ●

وتتابعت الأحداث ، وتقدمت جيوش الحلفاء كى تعبر الراين وتستولى على مدينة « مولهيم » المواجهة لكولونيا على الضفة الأخرى من النهر ... وقبضت المخابرات الأمريكية على رجلين وامرأة كانوا يقطنون الطابق الأرضى لإحدى البنايات ، وجدوا لديهم أسلحة ومفرقعات وجوازات سفر مزورة ، ولفافات تبغ مسمومة ، كما عثروا فى مخبأ فى المكان ، على بعض البطاقات الخاصة برجال الجستابو .

لزم الرجلان الصمت ، غير أن السيدة أبدت سرورها البالغ لوصول القوات الأمريكية ، وعندما اطمأنت أنها فى مأمن . طلبت التحقيق معها على وجه السرعة :

« أن لدى معلومات بالغة الأهمية ! » .

وهكذا اصطحبوها إلى المحقق ، لكنها لم تنتظر حتى يسألها ، بل راحت تدلى باعترافاتها :

« إننى فرنسية ، واسمى لوسى مارفيوزم ... ولقد كنت عميلة

للمكتب الثانى الفرنسى – المخابرات الفرنسية – لكنهم كشفوا أمرى وقبضوا علىّ ! » .

كانت المرأة تبدو عصبية إلى درجة رهيبة ، وكانت تدخن فى شراهة :

« عندما كشفوا أمرى عذبونى طويلاً ! » .

كشفت ثوبها فإذا علامات التعذيب واضحة على جسدها .

« وإنى أعترف أنى لم أحتمل التعذيب وإنى عملت من أجلهم مرغمة ! » .

« ولكن ، هل تعرفين هذين الرجلين ؟! » .

« نعم ... أنهما كورت ثيمان ولوثر فينزل ... وهما من قادة الجستابو الكبار ! » .

« هل تعرفين شيئاً عن فيرنر كرامر ؟! » .

« نعم أنى أعرفه جيداً ، لكنه رحل منذ فترة مع آخر عشيقاته ! » .

« من هى ! » .

« عاملة التليفون فى مقر الجستابو بكولونيا ! » .

« إلى أين ذهبوا ؟! » .

« لست أدرى على وجه الدقة ... لكن الذى سمعته أن والدا الفتاة يعيشان فى بيت منعزل وسط غابات موهيم ... وأعتقد أنهما ذهبا إلى هناك ! » .

« هل تعرفين الطريق إلى البيت ؟! » .

« لقد سمعت وصفاً للطريق ، لكنى لست واثقة تماماً منه ! » .

بالرغم من كل شىء ، كان وصف الفتاة كافياً للوصول إلى البيت الذى وضع تحت حراسة مشددة ورقابة بالغة الصرامة ، ولقد ساعد على هذا أن البيت كان بالفعل يقع فى منطقة منعزلة من الغابات ... وليومين كاملين ظلت الرقابة حول البيت فى سرية كاملة .. وفى اليوم الثالث ، طلب تشارلز كينير إحضار سيبيل ديكلور من السجن ، وعندما دخلت عليه ، كانت تبدو فى حالة بائسة تماماً بعد أن عوملت كسجينة عادية ، وعندما طلب منها كينير أن تجلس جلست ممتثلة . قال لها فى هدوء :

« استمعى إلىّ جيداً يا فتاتى فإن لدى أنباء قد تكون طيبة بالنسبة إليك ! » .

« هل عثرتم عليه ؟! » .

« نعم ... أعتقد هذا ! » .

« تعتقد ؟! » .

« نعم ... فإن المكان الذى نراقبه لا يزال أمره غامضاً بالنسبة إلينا ! » .

« وما الذى تريده منى ؟! » .

« أن تتعرفى على كرامر ! » .

« ثم ماذا ؟! » .

« لو أنك ساعدتينا فى التعرف عليه ، فلسوف نطلق سراحك فوراً ! » .

« وإذا لم أفعل ؟! » .

« ليس أمامنا سوى أن نرسلك إلى بلجيكا كى تقدمى إلى المحاكمة كجاسوسة ! » .

ولزمت سيبيل الصمت ...

كانت قوات الحلفاء الآن قد حاصرت المكان ، ثم داهمته ... ووجدوا فى البيت رجلا وامرأة ... وكان الرجل يرتدى ملابس مدنية ، وكانت ملامحه تماثل تماماً تلك الأوصاف التى لدى المخابرات الأمريكية عن فيرنر كرامر ... لكن الرجل أنكر أنه كرامر ، وأصر على إنكاره ...

وكانت سيبيل الآن فى الخارج شاحبة الوجه مرتجفة الأوصال ... وعندما استدعاها كينير ، دخلت وهى تنظر إلى الرجل فى إمعان ، ثم انتقلت بنظراتها إلى المرأة التى كانت تقف إلى جواره ...

تقدمت سيبيل ديكلور من الرجل وراحت تتفحص ملامحه وكانت مطبقة الشفتين ، وهنا سألها هارى كنج – الذى صحب الجميع منذ البداية – فى لهجة جافة وقاسية :

« هل تعرفين هذا الرجل ؟! » .

وابتسمت سيبيل وهى تلتفت إليه قائلة :

« إنى لم أره ولا مرة فى حياتى ! » .

وهنا هز تشارلس كينير رأسه متعجباً ، فلقد كانت الفتاة الفرنسية لوسى مارفيوزم قبلها قد تعرفت عليه وأكدت أنه فيرنر كرامر بلحمه وشحمه وشاربه المقصوص الذى يشبه شارب هتلر ... اقتيدت سيبيل ديكلور إلى سجنها ، وقبل مرور أربع وعشرين ساعة ... كان هناك ستة أشخاص على الأقل تعرفوا على كرامر ... وكان كرامر نفسه قد استسلم لمصيره ، واعترف !!

• • •

يقولون أن سيبيل كانت فيما بعد ذلك من أيام ، شديدة الهدوء وكأنها أرضت ضميرها ، ولقد رفضت فى إصرار أن تتحدث فى أمر إنكارها لكرامر . لقد تقبلت مصيرها فى هدوء ، ورفضت أن تشى بالرجل الذى أحبته حتى ولو أدى بها هذا إلى حبل المشنقة !

• • •

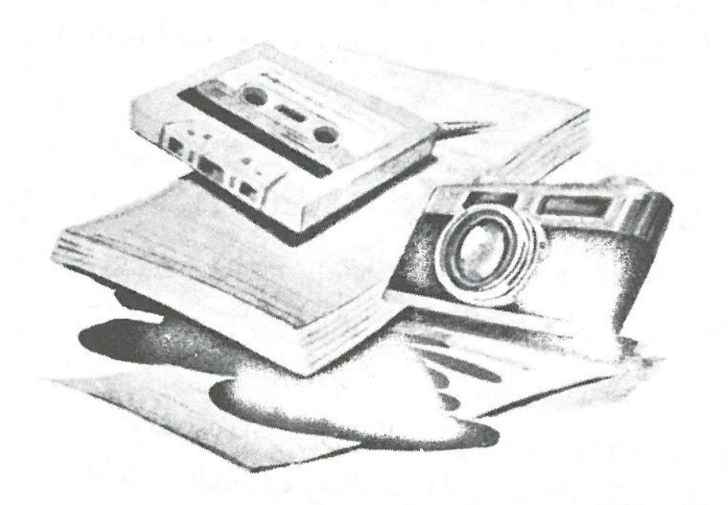
عندما انتهت الحرب ، قدمت سيبيل ديكلور إلى المحاكمة بعد أن أعيدت إلى بلجيكا ، ولقد صدر الحكم ضدها بالإعدام ... غير أنها استأنفت الحكم ، وكانت حجتها فى الاستئناف ، أنها قدمت إلى الحلفاء خدمات جليلة بأن أرشدتهم إلى العشرات من عملاء الجستابو ...

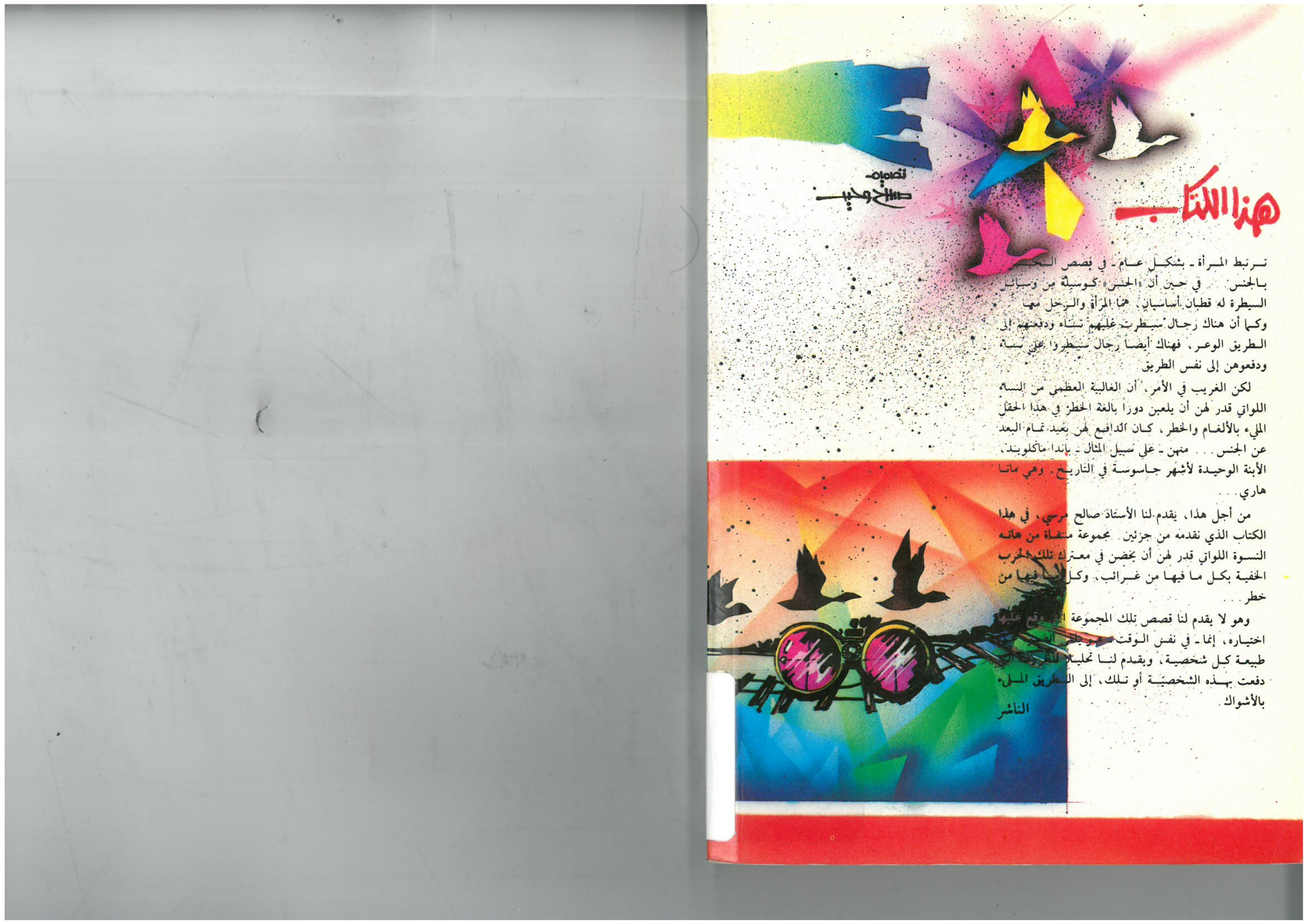
ولقد تصادف فى ذلك الوقت ، أن وصلت إلى الحكومة البلجيكية رسالة من المخابرات الأمريكية ، تقول فيها ، أن جهود سيبيل ديكلور قد مكنتهم من اعتقال عدد كبير من عملاء الجستابو ، مما ساعد كثيراً على تقدم جيوش الحلفاء !

وعندما نظر الاستئناف رأت المحكمة أن الآنسة سيبيل ديكلور ، قد قضت سنوات فى السجن ، وأنها قبل هذا ، قد كفرت عن ذنوبها بمساعدة الحلفاء ... ولذلك ، فلقد قضت بإطلاق سراحها !!

• • •

قال الذين شاهدوا سيبيل ديكلور بعد الإفراج عنها ، أنها استردت صحتها فى مدة وجيزة ، وأن الناس أطلقوا عليها بعد ذلك اسم « **عروس الراين** » ... فلقد كانت الخدمات التى قدمتها للحلفاء ، هى التى أعطتها فرصة أخرى للحياة ، فاستحقت هذا اللقب الغريب .




تصميم
صالح وحيد
هذا الكتاب
ترتبط المرأة - بشكل عام - في قصص التجسس بالجنس.. في حين أن «الجنس» كوسيلة من وسائل السيطرة له قطبان أساسيان، هما المرأة والرجل معها
وكما أن هناك رجال سيطرت عليهم نساء ودفعتهم إلى الطريق الوعر، فهناك أيضاً رجال سيطروا على نساء ودفعوهن إلى نفس الطريق
لكن الغريب في الأمر، أن الغالبية العظمى من النساء اللواتي قدر لهن أن يلعبن دوراً بالغة الخطر في هذا الحقل المليء بالألغام والخطر، كان الدافع لهن بعيد تمام البعد عن الجنس... منهن - على سبيل المثال - باندا ماكلويند، الأبنة الوحيدة لأشهر جاسوسة في التاريخ. وهي ماتا هاري...
من أجل هذا، يقدم لنا الأستاذ صالح مرسي، في هذا الكتاب الذي نقدمه من جزئين. مجموعة منتقاة من هاته النسوة اللواتي قدر لهن أن يخضن في معترك تلك الحرب الخفية بكل ما فيها من غرائب، وكل ما فيها من خطر...
وهو لا يقدم لنا قصص تلك المجموعة التي وقع عليها اختياره، إنما - في نفس الوقت - هو يلقي الضوء على طبيعة كل شخصية، ويقدم لنا تحليلاً للظروف التي دفعت بهذه الشخصية أو تلك، إلى الطريق المليء بالأشواك.
الناشر